

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة



مجلة الونشريس



للدراسات التّاريخية

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية تصدر عن قسم التاريخ
بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة - الجزائر









المجلد 04، العدد 01، شعبان 1446هـ/ جانفي 2025م

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة –الجزائر

مجلة الونشريس للدراسات التّاريخية

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية تصدر عن قسم التاريخ بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة.

السنة الرابعة، المجلد الرابع، العدد 01، شعبان 1446هـ/ جانفي 2025م

فهرس المجلد 04، العدد 01 – العدد التسلسلي 07

الإفتتاحية:

تواصل مجلة الونشريس للدراسات التاريخية مسيرتها العلمية بإصدار العدد الأول من المجلد الرابع (العدد التسلسلي السابع) والذي احتوى مواضيع تاريخية ثرية ومتنوعة بأقلام باحثين من مؤسستنا وجامعات جزائرية وتونسية.

وإذ نسعى في مجلة الونشريس لترقية المجلة لتكون في مصاف المجلات الرائدة في حقل الدراسات التاريخية بالجزائر والوطن العربي فإننا نرحب دوما بالإسهامات الجادة لنشرها في الأعداد المقبلة.

كما لا يفوتنا أن نقدم جزيل الشكر لمختلف الهيئات العلمية والإدارية بمؤسستنا والتي تحرص دوما على مرافقتنا لترقية المجلة.

إسهام الاستشراق في الحفاظ على التراث العربي الإسلامي المخطوط

The contribution of Orientalism to preservation on the Arab Islamic manuscript heritage

صباح بعارسية *
جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة– الجزائر
s.bearcia@univ-dbkm.dz

بلقاسم حدة
جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة– الجزائر
hbelkacem@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/10/09	2024/12/03	2025/01/31

الملخص:

لا شك أن المستشرقين عندما بدأوا بدراسة العالم الإسلامي، كان لدراستهم أهداف ودوافع مختلفة، والمبالغة في نقد كل أعمال المستشرقين وربطهم بالاستعمار والتنصير أمر غير موضوعي، لهذا يجب أن نفرق بين الاستشراق الإيديولوجي، والاستشراق العلمي الذي قدم الكثير من الأعمال للتراث والتاريخ الإسلاميين. فقد كان دافع البعض هو المعرفة الخالصة للشرق، والإنجازات العلمية كتحقيق المخطوطات ونشرها ونشر وثائق ومعاجم وفهارس... والهدف من هذه الورقة العلمية هو إبراز مدى اعتناء المستشرقين بالمخطوطات الإسلامية. والحديث عن إنجازات الاستشراق هنا لا علاقة له بحسن النوايا أو سوئها، ولا بالأغراض التي استهدفت من ورائها، بل هو متعلق بما تحقق من منافع ومصالح بأثر من حركة الاستشراق، وإن اختلفت الدوافع والمطامح. فهل صحيح أن المستشرقين حافظوا على التراث الإسلامي المخطوط من الضياع والتلف؟ وهل حفاظهم هذا كان علميا موضوعيا بحتا؟

اتبعنا المنهج الوصفي، وأدرجنا نماذج عن مخطوطات تم تحقيقها ونشرها بعد أن كانت حبيسة عند أشخاص لا يعرفون قيمتها، بل منهم من كان يبيع فيها الحلوى. وقد توصلنا لنتائج، أهمها أن جهد المستشرقين في الحفاظ على التراث المخطوط، بغض النظر عن النيات وأساليب الوصول لهذا التراث، جهد معتبر استفاد

* المؤلف المرسل

منه بعد ذلك أبناء بلاد المسلمين، وما زالوا. والتوصية هي ضرورة دراسة هذا الإرث الإستشراقي من طرف المسلمين، أصحاب التراث المخطوط، للاستفادة منه، والتنبيه لأخطاء المستشرقين فيه.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق التراث.؛ المخطوطات.؛ المستشرقون.؛ الدراسات؛

Abstract:

There is no doubt that the orientalists when they began to study the Islamic world, their study had different goals and motives, and the exaggeration of criticism of all the works of orientalists and linking them to colonialism and Christianization is subjective, so we must differentiate between ideological orientalism and scientific Orientalism, which provided many works for Islamic heritage and history. Some were motivated by pure knowledge of the Orient, scientific achievements such as the investigation and publication of manuscripts, the publication of documents, dictionaries, and indexes...They took great care of Islamic manuscripts. Talking about the achievements of Orientalism here has nothing to do with good or bad intentions, nor with the purposes that were targeted behind them.

Key words: Orientalism; Heritage; manuscripts; Orientalists; Studies**.**

مقدمة:

تعتبر الدراسات الاستشراقية مصدر كثير من الغربيين لفهم الثقافة الإسلامية، بل تتعدى إلى تأثيرها في السياسات تجاه أمم الشرق، وهذا ما يحتم على الباحثين المسلمين أن يهتموا بها دراسة وتصحيحا، وقد وُجد من المستشرقين من يتسم في بحوثه بالموضوعية والجدية. تتجلى أهمية المخطوطات وتظهر مكانتها من كونها جزءا من التراث العربي الإسلامي الذي قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية، ودراستها تدفع إلى التعرف على أسباب النهوض وعوامله، والتطور والتقدم والإبداع عند العرب المسلمين، ومعرفة الطريق الذي سار عليه الأقدمون في مسيرة بنائهم الحضاري. وكانت المخطوطات محل اهتمام عدد كبير من المستشرقين، نظرا لقيمتها العلمية والفنية، فضلا عن كونها جزءا مهما من التراث العربي

الإسلامي العريق. إن الاطلاع على الاستشراق ومناهج المستشرقين وأعمالهم ضرورة ملحة لكل باحث متخصص، يبصره بالساحة الثقافية التي يتعامل معها، وأعمال المستشرقين تنبع من بيئات مختلفة لذا يظهر التباين بين تلك الأعمال.

وانطلاقا من هذا المفهوم جاء هذا المقال للتعرف على جهود المستشرقين في خدمة التراث العربي الإسلامي المخطوط من جمع وتحقيق وترجمة وتصنيف وفهرسة... لدراسة الشرق وحضارته وثقافته ولغاته وفنونه وعلومه وعقيدته ومذاهبه. وبهذا تتمحور مشكلة البحث في التساؤلات الآتية: ما مدى مساهمة الاستشراق في الحفاظ على المخطوطات العربية؟ وما هي أبرز أعمال المستشرقين نحو المخطوطات؟ وما هي المناهج العلمية التي سلكوها في تحقيق التراث العربي الإسلامي المخطوط؟

يهدف هذا البحث إلى تحقيق ما يلي: التعرف على جهود المستشرقين للحفاظ على التراث العربي الإسلامي المخطوط، وبيان أهم أعلام المستشرقين الذين عملوا في مجال المخطوطات العربية الإسلامية، والاطلاع على أهم جهودهم وأعمالهم في خدمة التراث العربي الإسلامي المخطوط، والكشف عن مناهجهم في تحقيق المخطوطات، ونقد طريقتهم في ذلك.

1 - جهود المستشرقين لحفظ التراث العربي الإسلامي المخطوط

جمع المستشرق المخطوطات ورتبها وبوبها وحفظها في المكتبات الغربية فحقق وترجم، وأنشأ المعاجم والفهارس وسهّل تقنية البحث العلمي. إلا أن المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد(1935م-2003م) خلُص إلى أنه لا يوجد ما يسمى "الاستشراق الموضوعي" أو الإيجابي، لأن كل ما يفعل وكل ما يقال عن أنه موضوعي له ارتباط بالمصلحة فقط، وبالتالي فالاستشراق هو إيديولوجية[1].

رغم هذا يجب الاعتراف أن المخطوطات العربية الإسلامية على اختلاف تصانيفها، لقيت في أوروبا اهتماما ورعاية بالغتين. فقد تم التعامل معها على أساس أنها كنوز يجب الحفاظ عليها، فعمل المستشرقون على حفظها وصيانتها من التلف، فجلدوها بأحدث الطرق الفنية آنذاك، ثم فهرسوها فهرسة علمية أكاديمية منهجية، ثم شكلوا لجانا علمية تعمل على وصفها وصفا علميا دقيقا، وتشير إلى المواد العلمية التي حرص المؤلف على تقديمها للناس، ثم تثبيت اسم المؤلف وسنة ولادته ووفاته وتاريخ كتابته لهذه المخطوطة، واضعين إياها بذلك تحت تصرف الباحثين. وهكذا حُميت هذه المخطوطات من الضياع والتلف، الذي كان حاصلا لها عند أهلها الذين لم يقدروا آنذاك قيمتها العلمية[2]. لهذا فالثقافة العربية الإسلامية مدينة لبعض أعمال المستشرقين، ولما بذلوه من جهد ووقت وطاقات، ولما سخروه لذلك من إمكانات ليصلوا لما وصلوا إليه. لقد نفضوا الغبار على التراث العربي الإسلامي، واكتشفوا مئات المخطوطات في زوايا وأركان العالم الإسلامي والأوروبي، فتم الاهتمام بها وجمعها وطبعها...[3]، وقاموا بنشر النصوص العربية الإسلامية، وحققوا المخطوطات وفهرسوها فهرسة علمية، ودرسوا التراث العربي الإسلامي من جوانبه كلها، مع تركيزهم على التاريخ والجغرافيا وكتب التراجم والطبقات والأدب ودواوين الشعر. وحققوا النصوص المتعلقة بالفلسفة وعلم الكلام والفِرق والمذاهب الفكرية، وتراث العرب العلمي التطبيقي كالطب والكيمياء والفلاحة والحساب والجبر والهندسة والفلك والبصريات[4].

1.1. تاريخ هذه الجهود

إن نقل المخطوطات وإيداعها المكتبات الأوروبية مكن من الحفاظ عليها في ظروف طيبة، وساهم في التعريف بها وبالحضارة والشعوب التي أفرزتها مقيمة بذلك الدليل على عراقة تلك الشعوب، وعلى ما وصلت إليه من مستوى حضاري، وما أنجزته من تقدم علمي وفني ساهمت به في تقدم الإنسانية. لقد زاد الاهتمام بالمخطوطات كموضوع أساسي للاستشراق الأوروبي بين القرنين الـ16م والـ18م. إذ اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات

العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي، وهو عمل كان مبنيا على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثا غنيا في شتى مجالات العلوم. هذا الأمر سهّل مهمة الدراسات العربية في أوروبا وتنشيطها، ومنذ حملة نابليون (1769م-1821م) على مصر سنة 1798م تزايد نفوذ أوروبا في الشرق، ما ساعد على جلب الكثير من المخطوطات. وكانت الجهات المعنية بأوروبا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق، من ذلك أن ملك بروسيا فريديريك وليم الرابع (1795م-1861م) أرسل لمصر عالم الآثار البروسي ريتشارد ليبسيوس (1810م-1884م)، سنة 1842م، لشراء مخطوطات شرقية. ومن أهم الإنجازات المذهلة ما قام به المستشرق الألماني وليم ألوارد (1828م-1909م) الذي وضع، سنة 1887م، فهرس في 10 مجلدات للمخطوطات العربية بمكتبة برلين وعددها 10.000 مخطوط[5].

2.1. أشهر المكتبات والفهارس

تسربت المخطوطات والوثائق العربية والإسلامية، التي تعتبر من أهم مكونات الحضارة الإسلامية والتي غصت بها، بجانب المتاحف، العديد من المكتبات العالمية ودور الوثائق في أوروبا وأمريكا، مثل المكتبة الوطنية بباريس (أكثر من سبعة آلاف مخطوط عربي[6]) ومكتبة الإسكوريال بمدريد (1900 مخطوط عربي، أكثرها من بقايا المكتبة الأندلسية بغرناطة)، نفس الأمر نجده بمكتبة مدريد الوطنية[7]، والمكتبة المديتيشية بفلورانسا، ومكتبة الفاتيكان بروما (مجموعة نادرة من المخطوطات العربية)، وبالمكتبة البودلية بأكسفورد فهرست وصف لـ1400 مخطوطة عربية أضيف لها وصف لـ300 مخطوطة، ومكتبات برلين ودرسدن وهامبورغ بألمانيا. وقد ضمت مكتبة برلين الوطنية آلاف المخطوطات العربية في كل حقول التراث العربي، منها دواوين شعرية، كتب في الفلك والرياضيات والطب. وظهرت عدة فهارس لمجموعات المكتبة وما فيها من مخطوطات، كان أهمها الفهرس الذي وضعه المستشرق الألماني كارل بروكلمان (1868م-1956م) الذي نُشر سنة 1900م، وقبله فهرس مواطنه

المستشرق جوزيف أومير(1866م-1922م) الذي نشر سنة 1886م[8]، ومكتبة فيينا بالنمسا... ولم تترك هذه المخطوطات فرعا من فروع العلم والمعرفة إلا وتداولته بالبحث والدراسة[9].

ويتجلى الجهد الأكبر من نشاط المستشرقين في وضع الفهارس لهذه المخطوطات لحصرها ووصفها والتعرف عليها وتيسير ذلك على الباحثين[10]. لقد ألحقوا بتحقيقاتهم للمخطوطات فهارس يسرت للباحثين البحث ووفرت وقت وجهد كبيرين. وقد اشتملت على إحصاءات لأسماء الأعلام والقبائل والأماكن والشعر والأيام والأمثال والكتب والقوافي وغريب الألفاظ[11]. فمكتبة جامعة ليدن بهولندا احتوت على أندر الطبعات التي أنتجتها أولى المطابع العربية الأوروبية، وأنتجت نفائس وذخائر التراث العربي[12].

وعندما عكف المستشرقون على تعلم اللغة العربية برعوا فيها، وأصبحوا أساتذة يحققون المخطوطات القديمة، ويتتبعون القواميس العويصة، نظموا الفهارس والجداول للدراسات الأدبية والتاريخية. استخرجوا من بطون المكتبات المخطوطات النفيسة التي استولت عليها دولهم من بلدان الشرق، أو اشتروها بأثمان بخسة فحققوها ونشروها. وأنشأوا مكتبات أصبحت أغنى المكتبات لجهة مقتنياتها من المخطوطات العلمية والتاريخية والأدبية واللغوية... ولغزارة وكثرة فروع هذه المخطوطات (عربية- تركية- فارسية...) أنشئوا في مكتباتهم "القسم الشرقي"، ووضعوا لموجوداته فهارس تقع في مجلدات[13]. لقد جمع المستشرقون ما استطاعوا الوصول إليه ونقلوه إلى مكتباتهم، وصارت المكتبات الغربية تزخر بملايين المخطوطات الإسلامية، فحُفِظت بهذا من العبث واللعب والضياع والاحتراق، وظلت شاهدة على حضارة المسلمين، ينهل منها الباحثون في كل وقت[14].

2- دراسة المخطوط

المستشرقون بحق لديهم صبر عجيب للبحث والتنقيب والدراسة، ويتفانون في أعمالهم بشكل جدي ومتميز للمعرفة والاطلاع، ويستمعون لكل ملاحظة أو نقد يوجه إليهم في ما

يدرسونه أو يبحثون عنه، وساعدتهم على ذلك إحاطتهم باللغات القديمة والحديثة. وقد أشاد العديد من العلماء العرب بهذا التفاني للعلم والرغبة في البحث الشاق بهدف المعرفة الشاملة. ومن هؤلاء شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق (1885م-1947م) الذي أبدى إعجابه بصبرهم وحسن أسلوبهم وسعة اطلاعهم[15]. لقد ولج المستشرقون أبواب المخطوط العربي الإسلامي فأفاضوا عليه تحقيقا وتعليقا ونشرا، وكان لهم دور مهم في نقل المخطوطات في العالم العربي الإسلامي إلى أوروبا، والعكوف على قراءتها. وكان هذا العمل مبنيا على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثا غنيا في شتى مجالات العلوم، وكان بعض الحكام في أوروبا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات[16].

ذكرت المفكرة المصرية عائشة بنت الشاطئ (1913م-1998م) أن أمانة المستشرقين في نقل النص يقابلها عند المسلمين عبث بالنصوص، يتناولونها بالحذف والإضافة والتغيير، ودقتهم في مقابلة النسخ الخطية للنص، والتماس الأصالة فيها والتثبت من صحة نسبها... وتضيف أنه واضح أن الناشرين العرب لم يقصدوا النشر العلمي، ولا أثقلوا على أنفسهم ببعض أعبائه وتبعاته، ولا التزموا بنظمه ومناهجه، بل تقول أن النشر كان وسيلة ارتزاق فحسب[17].

1.2. النموذج الروسي في فهرسة المخطوطات

يوضح المستعرب الروسي أنس خالدوف (القرن 20م)، المختص في المخطوطات وفهرستها، الدور المركزي للمتحف الآسيوي الروسي في مجال المخطوطات، فيقول: "لقد اضطلع المتحف الآسيوي لأكاديمية العلوم بسان بترسبورغ، الذي أسس في سنة 1818م، بدور المؤسسة المركزية في روسيا لجمع المخطوطات الشرقية وحفظها، ودراستها على مدى القرن 19م بأسره، والنصف الأول من 20م"[18].

لقد حظيت المخطوطات العربية بعمل رائع في فهرسة متعددة الأغراض من جزأين، قام بها فريق عمل من أساتذة المعهد بإشراف ومشاركة خالدوف، الذي استعرض في مقدمة الفهرس الجهود السابقة في خدمة مخطوطات تلك الخزانة من فهرسة سابقة لمحتوياتها، والدراسات النقدية والأبحاث والمقالات العلمية حول تلك المخطوطات، والجهود التي تمت في تحقيق ونشر بعضها. وقد أشار إلى هذه الجهود أيضا عند مواطن إيراد هذه المخطوطات في داخل الفهرس. أشار المشرف على إعداد الفهرس في تعريفه بالعمل الذي تم في إعداده وطريقة تصنيفه إلى أن الفهرس يحتوي على معلومات عن كل المخطوطات العربية في المعهد، ويصل عدد المواد المعرّف بها إلى 10822 مادة، وكل مادة أخذت رقما مستقلا، بغض النظر فيما إذا كانت نسخة مكررة أو جزءا من مجموع أو مجلد. وقد تم تصنيف الفهرس حسب الموضوعات بدءا بالقرآن الكريم ثم الدراسات القرآنية، ثم الحديث... إلخ. والأصل في ترتيب المواد داخل كل عنوان حسب الترتيب الزمني، ويتم التعريف بالمخطوط من خلال 11 معلومة، يأتي على رأسها عنوان المخطوط واسم مؤلفه، واللذان يُكتبان باللغة العربية. وإضافة إلى الفهرس الموضوعي للمخطوطات العربية وطريقة ترتيب المواد فيه، والمعلومات التفصيلية المذكورة للمخطوطة، فقد اشتمل الفهرس على كشافات متنوعة، شملت قوائم بأسماء عناوين المؤلفات، وأسماء المؤلفين، وأسماء النُساخ، وأماكن النسخ، وأسماء المتبرعين بالمخطوطات، وغير ذلك من كشافات مفيدة. مما أعطى ميزة لهذا الفهرس رغم اختصاره ليُعرِف بشكل دقيق بالمخطوطات العربية في خزانة معهد الدراسات الشرقية. لقد تم إعداد وتأليف هذا الفهرس في سنوات 1964م-1971م، وقد كان تحرير هذا الفهرس في الأعوام 1969م-1971م[19].

2.2. تحقيق المستشرقين للمخطوطات

فن التحقيق ليس فنا غربيا مستحدثا، إنما هو عربي أصيل قديم، وضع أصوله العرب منذ زاولوا العلم وروايته من حديث وشعر وأدب وسائر فنون الثقافة. وكان نشاطهم في ذلك

ظاهرا... وقد أدى المستشرقون هذه الأمانة الفنية نقلا عن العرب الذين بذلوا جهدا كبيرا في حفظ تراثهم الأدبي وتحقيقه ومراجعته وروايته وشرحه مثل "المفضليات" (130 قصيدة) للراوية المفضل الضبي (توفي 784م)، و"الأصمعيات" (72 قصيدة) للراوية أبي سعيد الأصمعي (741م-831م)، والراوية أبي زيد القرشي (توفي حوالي 787م) صاحب "جمهرة أشعار العرب" (7 طبقات للشعراء، كل طبقة بها سبع قصائد)[20].

وقد تألق العلماء العرب القدامى في وضع قواعد وأسس التحقيق، وكان لهم مؤلفات تتصل بالمنهج العلمي عند التأليف والتحقيق، من بين ذلك: "مقدمة" المحدث ابن الصلاح (1181م-1245م)، "تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم" للقاضي المحدث بدر الدين بن جماعة (1241م-1333م)، و"التعريف بآداب التأليف" للإمام الحافظ جلال الدين لسيوطي (1445م-1505م)[21]. لكن قدماء العرب اكتفوا في مناهجهم على تراجم للأعلام، ومنتخبات للأشعار والأنثار، لكنها أغفلت الربط بين المبدع وبيئته، كما لم تربط بين النص وقائله، فجاء تاريخ المستشرقين للأدب العربي إضافة جليلة[22].

لهذا لا يمكن إنكار دور المستشرقين في تحقيق المخطوطات، حيث أدى الاستشراق دورا مؤثرا لا يمكن إغفاله أو إنكاره في إحياء التراث العربي الإسلامي، إذ وضع علماؤه القواعد الأساسية للسير عليها في نشر المخطوطات وتحقيقها معتمدين على المبادئ التي توصل إليها علماء الآداب الكلاسيكية في أواسط القرن 19م. وتأثير المستشرقين جلي حين وضعوا منهجية كاملة لتحقيق المخطوطات؛ فقد ألف المستشرق الألماني غوتلف برجشتراسر (1886م-1933م) في هذا الفن، من خلال محاضراته التي ألقاها على طلبة الماجستير في كلية الآداب، جامعة القاهرة عامي 1931م و1932م. ثم جاء المستشرقان الفرنسيان ريجيس بلاشير (1900م-1973م) وجون سوفاجيه (1901م-1950م) فأصدرا كتابهما بالفرنسية بعنوان: "قواعد نشر وترجمة النصوص العربية" سنة 1945م، ثم أصدر

المحقق والمؤرخ عبد السلام هارون (1909م-1988م) كتابه بعنوان: "تحقيق النصوص ونشرها"، وهو أول كتاب عربي يتناول هذا الفن الذي تأسس على أيدي المستشرقين[23].

لقد صُنفت اتجاهات المستشرقين في تحقيق التراث العربي الإسلامي بوجه عام إلى مدارس، أطلقت عليها المدارس الاستشراقية، ظهرت منذ أواخر القرن 17م و18م، وفيها كان التوجه الواسع لنشر المخطوطات العربية وتحقيقها وترجمة بعضها، ونشرت في تلك الفترة متون مهمة. وبفضل شيخ المستشرقين الألمان تيودور نولدكه (1836م-1930م) نُشرت أهم كتب التراث بتحقيقات امتازت بالقدرة الفائقة والدقة، وإن لم تخل من أخطاء[24]. كما اتجهت عناية المستشرقين في نشر المؤلفات العربية إلى ناحيتين: الأولى اهتموا بالتحقيق حيث قابلوا بين النُسخ، ولاحظوا الفروق وأثبتوها، ورجحوا منها ما حسبوه أصحها وأعدلها، وضموا إلى ذلك فهارس أبجدية لموضوعات ما نشروه من هذه الكتب، ألحقوها بأواخر الكتب المنشورة. الثانية شرح بعض الكتب العربية شروحا مفيدة[25].

وأهم ما ميز محققات المستشرقين هو المقدمات المستفيضة والشروح المفيدة والفهارس الوافية والعناية بإثبات المصادر والمراجع القديمة والحديثة. واتسم بعض المستشرقين بالدقة العلمية في الشروح التي وضعوها على النصوص الأدبية التي حققوها، فنولدكه، ولغرض الدقة في شرحه للمعلقات لتحديد الحيوانات والنباتات التي وردت في النصوص كان يستشير علماء النبات والحيوان[26]. وقد ألقى برجرشتراسر، كما أشرنا أعلاه، عدة محاضرات على طلبة كلية الآداب بجامعة القاهرة عام 1931م و1932م، حول عملية التحقيق. وهي تنقسم إلى ثلاثة موضوعات:

1.2.2. النسخ

تناول فيه مشكلة النُسخ الخطية، وتفاوت قيمتها، والطرق التي تُوصل إلى أفضلية النُسخ فيما بينها، وخاصة بين الكاملة والناقصة، وأحسنية الواضحة عن غير الواضحة، وأفضلية قديمها عن حديثها، وأحسنية المقابلة عن غير المقابلة. كما درس العلامات الظاهرية في نقد

قيمة النسخة، والدلائل الباطنة التي منها الإخلال والتعديم، والتأخير والإخفاء... وتمثل بالمخطوطات التي حققها المستشرقون؛ فقد أشاد بجهود المستشرق البولوني تادوز جان كوالسكي (1889م-1948م)، الذي حقق ديوان شاعر الأوس قيس بن الخطيم (توفي 620م)، الذي نُشر سنة 1914م. كما درس اختلاف الروايات وأسبابها، التي أهمها بُعد العهد بين الشعراء والذين جمعوا دواوينهم، وأشار لأسباب اضطراب رواية الشعر، مفسرا ذلك بالانتحال[27].

2.2.2. معضلة النص

أولا: معرفة المادة التي يبحث فيها الكتاب (موضوعه وأفكاره). لقد أمسك نولدكة عن شرح معلقة الغلام القتيل طرفة بن العبد (543م-569م)، لاحتوائها على وصف الجمل، وهو لم يكن متخصصا في علم الحيوان، رغم أنه اطلع على كثير من ذلك.

ثانيا: معرفة اللغة وأساليبها، ذلك لأنه لا يوجد بين مؤلفي الكتب العربية اثنان تتوافق عباراتهما توافقا تاما، كما أن معرفة تاريخ الخط تسهل تحديد أجناس التحريف، وتعين على إصلاحها. وخلص إلى قاعدتين هامتين هي أن النص الأقصر هو الصحيح، والنص الأصعب صحيح أيضا[28].

3.2.2. العمل الواجب لنشر كتاب قديم

أولا يجب التأكد أن الكتاب لم يُنشر بالعودة لفهارس المخطوطات، ثم مقابلة النسخ وأهميتها، ثم تأتي عملية الإملاء والترقيم، وأخيرا الفهرسة. فقد أعد برجشتراسر فهرست عند نشره كثير من الأشعار العربية[29].

3-أمثلة عن مخطوطات حققها مستشرقون

1.3. القرآن الكريم

قدم المستشرقون مئات المصادر والمراجع الدينية، تصحيحا وتحقيقا ونشرا، في علم القراءات والعلوم القرآنية الأخرى وطبعوها، وذلك قبل المسلمين بمئات السنين. كما كتبوا مئات الكتب

وآلاف المقالات المتخصصة، حتى أن كتاب "المذاهب التفسيرية للقرآن" للمستشرق المجري إجناس جولدزيهر اليهودي (1850م-1921م) أصبح مؤسسا لتخصص جديد هو "المذاهب التفسيرية للقرآن" في مراكز العلوم القرآنية. كما وضعوا معاجم القرآن والحديث لتسهيل الدراسات الإسلامية حتى من أجل الباحثين المسلمين[30]. ونشر برجرشتراسر "المختصر من شواذ القرآن الكريم من كتاب "البديع"" لعالم النحو والقراءات الحسين بن خالويه (899م-980م) سنة 1934م. وكتاب "غاية النهاية في طبقات القراء" لشيخ القراء شمس الدين محمد بن الجزري (1350م-1429م)، الذي أتم نشره تلميذ برجرشتراسر المستشرق الألماني أوتو برتسل (1893م-1941م)، ونشر هذا الأخير كتاب "التيسير في القراءات السبع" لعالم القراءات والمفسر عثمان بن سعيد الداني الأندلسي (981م-1053م) سنة 1930م، و"المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار" لنفس المؤلف سنة 1932م[31].

2.3. اللغة العربية

إن المتتبع لجهود المستشرقين في دراساتهم للتراث العربي تُلفته عناية المستشرقين بالشعر العربي القديم، لمكانة ذلك الشعر في نفوس العرب وتاريخهم، ولما له من أهمية في فهم الذهنية العربية، وما له من خطورة في فهم التراث العربي القديم عموما، وإدراك خفايا القرآن الكريم على وجه الخصوص. وقد أدرك المشتغلون بتراث الشرق العربي الإسلامي أن تاريخ الشعب المسلم العربي، في صيرورته التاريخية وتطلعاته المستقبلية، مشدود إلى قطبين أساسيين، يُحركان وجوده ويحددان مصيره، هما: القرآن ولغة هذا القرآن[32].

لقد اتصف بعض المستشرقين بالإخلاص في البحث، والنزاهة العلمية والبراعة الفائقة في النطق باللغة العربية، بل وفي فهم أسرار حياة العرب[33]، وهي براعة تكاد تكون تامة في حقل تحقيق كتب اللغة، ونشرها نشرا متقنا، وبذلك خدموا اللغة العربية خدمة كبيرة بإصدار أمهات الكتب. فقد اهتم المستشرقون الفرنسيون والهولنديون والألمان بحقل اللغة، وأول كرسي

للغة العربية تأسس في كوليج دي فرانس سنة 1539م، وتأسس كرسي اللغة العربية بجامعة ليدن بهولندا سنة 1613م. ولعل كتاب الفقيه النحوي محمد بن أجروم الصنهاجي (1273م-1323م) "الأجرومية"، الذي طُبع سنة 1592م، من أقدم كتب اللغة المطبوعة في أوروبا، كذلك "الألفباء العربية" للمستشرق الألماني جاكوب كريستمان (1554م-1613م) (أول أستاذ اللغة العربية بجامعة هايدلبرغ بألمانيا سنة 1582م)[34].

3.3. الأدب العربي

نالت المخطوطات الأدبية اهتماما كبيرا من المستشرقين، نقبوا عنها، وأعدوا الدراسات حولها، فوضعوا لها المقدمات والحواشي، والتعليقات أرفقوها مع عملية النشر والتحقيق والترجمة، معتمدين في ذلك على مناهج علمية صحيحة؛ قابلوا بين النسخ المختلفة ولاحظوا الفروق وأثبتوها، ورجحوا منها ما حسبوه أصحها وأعدلها، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام أثبتوها في أواخر الكتب التي نشروها. لقد نشر المستشرقون "المعلقات السبع" التي حُققت ونُشرت أكثر من عشرين مرة في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا وروسيا وغيرها. وقد بلغ عدد دواوين الشعر الجاهلي التي حققوها 30 ديوانا عدا بعض القصائد المشهورة. قاموا بنفس الأمر مع دواوين الشعر الإسلامي، حيث حققوا ونشروا ما يزيد عن 50 ديوانا، إضافة للمجاميع الشعرية المشهورة كـ"المفضليات" و"الأصمعيات"، وبعض كتب الأدب كـ"الأغاني" للأديب النسابة المؤرخ أبي فرج الإصفهاني (897م-967م) و"البيان والتبيين" للأديب عمر بن بحر الجاحظر(776م-868م)، زد كتب الأخبار والتراجم الأدبية، كـ"معجم الأدباء" للأديب ياقوت الحموي (1179م-1229م) و"معجم الشعراء" للمؤرخ الأديب محمد المزرباني (909م-993م)[35].

كان أكثر المستشرقين الذين تخصصوا في ميدان الشعر قد حققوا الدواوين بدقة، وعنوا بالأوزان الشعرية، واهتموا بالبحور والقوافي. وقد تميزت المدرستان الهولندية والفرنسية بالاهتمام بكتب الأدب العربي ونشر دواوين الشعر. ويعتبر ديوان الصحابي علي بن أبي طالب

(601م-661م)، الذي نشره المستشرق الهولندي جراردس كويبرس (القرن 18م) في ليدن سنة 1745م، من أوائل دواوين الشعر التي نُشرت في أوروبا. ونشر المستشرق الألماني رايسكه (1716م-1774م) قصيدة طرفة بن العبد "المعلقة" ومعها "لامية العجم" للشاعر الأديب الوزير الحسين بن علي للطغرائي (1061م-1121م)، التي مطلعها "أصالة الرأي صانتني عن الخطل"، بمدينة ليدن سنة 1742م، والقصيدة "العينية"، نظم الطبيب الفيلسوف الحسين بن سينا (980م-1037م) سنة 1635م. ومن الفرنسيين الذين اهتموا بالأدب العربي المستشرق البارون دي ساسي (1758م-1838م)، الذي كان عضوا في "جمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية" في مكتبة باريس الوطنية، ونشر كتبا عديدة عن لهجات العرب. نشر الجزء الثاني من كتاب المؤرخ تقي الدين المقريزي (1364م-1442م) "السلوك لمعرفة دول الملوك" في مجلدين، ونشر "لامية العرب" لثابت بن أواس الشنفرى (توفي 525م)، وأشعار أبي العلاء المعري (973م-1057م) وقصيدة الطغرائي، المذكورة أعلاه، ونشر كتاب "كليلة ودمنة" مع مقدمة، و"مقامات الحريري" (1054م-1122م) و"ألفية" محمد بن مالك (1203م-1274م)[36].

كما أخرج المستشرق الإنكليزي أنتوني بيفن (1859م-1933م) "نقائض" الشاعرين جرير (653م-728م) والفرزدق (641م-732م)، وحرر المستشرق الإنكليزي تشارلز جيمس ليال (1845م-1920م) "المفضليات"، وترجم ديفيد صامويل مارجليوث (1858م-1940م)، أستاذ العربية في أكسفورد وشيخ المستشرقين الإنكليز، "معجم الأدباء" لياقوت الحموي، و"رسائل أبي العلاء"، و"أحاديث" القاضي الأديب أبو علي التنوخي (939م-994م). وحقق المستشرق الإنكليزي هنري فريدريك أمدروز (1854م-1917م) كتاب "تجارب الأمم" للمؤرخ أحمد مسكويه (932م-1030م) و"تحفة الأمراء" للمؤرخ هلال الصابئ (969م-1056م) و"نزهة القلوب" للرحالة الأديب حمد الله المستوفي القزويني (1281م-1389م). وحقق المستشرق الإنكليزي ألين نيكلسون (1868م-

1945م) "ترجمات الأشواق" للمتصوف محي الدين بن عربي (1165م-1240م)،...[37] ولا شك أن المستشرقين أفادوا علماء العرب المحدثين، فقد عبدوا سبل البحث العلمي والتحقيق المنهجي السليم، بطرق منظمة وأساليب حديثة كان العرب قد أغفلوا عنها حينا من الدهر[38].

4 – مشاهير المستشرقين

1.4. الألمان

اعتنى المستشرقون الألمان بحفظ المخطوطات وصيانتها وترميمها وفهرستها وترجمتها وتحقيقها ثم نشرها. اتصف منهجهم في ضبط نصوص التحقيق بالدقة والضبط والموضوعية، وكانوا غالبا ما يستعينون بالعرب المسلمين من شيوخ وعلماء وأساتذة في ضبط النص، بعكس المستشرقين الأوروبيين الآخرين الذين لم يستعينوا بالعرب المسلمين. كما يُسجل للمستشرقين الألمان السعي الحثيث والجدة في خدمة المخطوطات العربية الإسلامية[39].

لقد قام هلموت ريتر (1891م-1971م) بزيارة المناطق العربية، وبعدها استقر مدة 30 سنة في إسطنبول ليعمل على دراسة المخطوطات العربية فيها. وأشرف على إصدار سلسلة من تلك المخطوطات، من بينها كتاب "فرق الشيعة" للمتكلم الشيعي الحسن بن موسى النوبختي (توفي 922م). وجاء في ترجمة حياة رايسكه متحدثا عن المخطوطات "ليس عندي أولاد، ولكن أولادي يتامى بدون أب؛ وأعني بهم المخطوطات"[40]. ومنذ وفاته لا تزال تظهر تحقيقات في النصوص الأدبية والشعرية والتاريخية والجغرافية والفلسفية والعلمية والمعاجم والدراسات القرآنية والطبية، والتي تعجز بعض المؤسسات العربية عن إخراجها. كذلك فهرسة المخطوطات العربية منذ كريستمان (1554م-1613م) الذي وضع أول فهرسة لمخطوطات رجل نبيل ألماني مرورا بفهرس ألوارد، المذكور أعلاه. كما أن كتاب بروكلمان "تاريخ الآداب العربية" مرشدا للمخطوطات العربية في العالم، خاصة بعد أن صححه وغطى

نقصه الباحث التركي الألماني فؤاد سزكين (1924م-2018م) في كتابه "تاريخ المخطوطات العربية" باللغة الألمانية[41].

ورغم اهتمام جوزيف شاخت (1902م-1969م) الكبير بالفقه الإسلامي وعلم الكلام، فقد حقق نصوص عربية مخطوطة في قضايا أدبية كما حقق نصوص مخطوطة في الفقه الإسلامي. وقام في ميدان المخطوطات بدراسة العديد منها في القاهرة وإسطنبول وفاس وتونس، نشر منها في مجلة "الساميات" بحثا تحت عنوان "من مكتبات إسطنبول وما حولها"، ونشر "من مكتبات شرقية في إسطنبول والقاهرة" في مجلة "أعمال الأكاديمية البروسية للعلوم"، ونشر "مكتبات ومخطوطات إباضية" في "المجلة الأفريقية"، وبحث بعنوان "في بعض المخطوطات الموجودة في مكتبة القرويين بفاس" في مجلة "دراسات اسشراقية"، ...[42]

2.4. الروس

كان من أهم عوامل تنامي العناية الروسية بالشرق الإسلامي وحضارته وشعوبه موقع روسيا الجغرافي وحدودها المباشرة مع العالم الإسلامي، بل وخضوع عدد من شعوبه للسيطرة الروسية منذ النصف الثاني من القرن 16م، وتوسع تلك السيطرة خلال القرن 19م إلى عمق آسيا الوسطى. وكان من لوازم تلك العناية تنامي الاهتمام بالمخطوطات الإسلامية والتي كان قسم كبير منها مكتوبا باللغة العربية، حيث هي لغة العلم والدين في تلك الأصقاع. وكانت المناطق الأساسية لتزويد الخزائن الروسية بالمخطوطات الشرقية، بما فيها المخطوطات العربية، جمهوريات آسيا الوسطى التي كانت ضمن حدود روسيا القيصرية والاتحاد السوفيتي لاحقا، والمناطق الإسلامية في روسيا الفيدرالية، وبالأخص حوض الفولغا والقوقاز. وغني عن الإشارة إلى أسماء العلماء الكبار والأئمة العظام في مختلف العلوم الذين هم من أهل تلك الديار. لهذا لا يخلو مركز من مراكز المخطوطات الأساسية في روسيا من وجود للمخطوطات فيه، وقد حظيت مدينة سان بترسبورغ بأهم مراكز حفظ المخطوطات؛ فمنذ أن كانت عاصمة لروسيا القيصرية كانت مركزا للمخطوطات، تأتيها من جميع الجهات. وقد نشأت في العهد السوفييتي

مراكز أخرى في جمهورياته كان لها دور في حفظ المخطوطات واقتنائها، بما في ذلك المناطق الإسلامية في روسيا الفيدرالية، وبالأخص في قازان وداغستان[43].

لقد كرس الأكاديميون كريستيان فران (1782م-1851م) وبرنارد دورن (1805م-1881م) وفيكتور روزن (1849م-1908م) وكارل زاليمان (1849م-1916م) وفاسيلي بارتولد (1869م-1930م) وإغناطيوس كراتشكوفسكي (1883م-1951م)، وعدد آخر من كبار المستشرقين الروس، لتسليط الأضواء على هذه المخطوطات، عشرات المقالات وعددا من الفهارس والشروح الموجزة، ويرتكز الكثير من الأبحاث الأدبية والتاريخية والنصية والمرجعية على مخطوطات من مجموعة بترسبورغ[44]. لقد كرس المستشرقون الروس جهدهم ونشروا المدونات العربية التي لها أساس بتاريخ الاتحاد السوفياتي، كما أوضحوا دور العرب والمسلمين الحضاري وتأثيره في تاريخ التمدن، في دراسات بارتولد، المذكور أعلاه÷؛ "الإسلام في المدينة الإسلامية"، "العالم الإسلامي"، وكراتشكوفسكسي[45] في "المدينة العربية في إسبانيا". كما كتبوا وبحثوا في أعلام الفكر الإسلامي من أمثال ابن سينا والموسوعي أبو الريحان البيروني (973م-1050م)[46].

5. النقد

كانت مستويات المستشرقين العلمية والمعرفية والمنهجية والتقنية، متماشية ومتوازية مع مستوى دولهم وشعوبهم الحضاري بعد نهضتهم عكس الشرقيين، فكانوا أقوى من غيرهم، وكانوا أرقى بحثا وأدق دراسة، وأشمل معرفة بمواضيع دراساتهم وأكفأ وظيفة، فوصلوا إلى نتائج معتبرة تشهد لهم بالجد والاجتهاد وطول النفَس والمتابعة، ودقة البحث والتنقيب وكثرة التنقل والترحال دون كلل أو ملل للوصول إلى النتائج المرجوة. إضافة لوقوف دولهم من ورائهم، حيث سخرت لهم كل الإمكانيات والوسائل العلمية والتقنية والمؤسساتية، الثقافية والإعلامية في أوطانهم وفي مستعمرات بلدانهم، وفي مراكز السفارات والقنصليات التابعة لحكوماتهم، وفتحت أمامهم أبواب المكتبات والأرشيفات الموصدة على غيرهم، بما فيها كتب ومخطوطات

نادرة. ونتيجة هذه الجهود الجبارة والإمكانات الضخمة التي توفرت لدى علماء أكفاء ومفكرين كبار أدت إلى ظهور عدد من عمالقة الاستشراق على المستوى العالمي، وظهرت بعض الأعمال كانت بمثابة اكتشاف جديد[47].

1.5. النقد الإيجابي

كانت نظرة الباحثين الغربيين للاستشراق، في القرن 19م وبداية القرن 20م، نظرة شخص مستصعب لهذا العلم، ومرد وذلك حاجز اللغات والكتابات غير المفهومة لديهم، والأديان والفلسفات والأدب المختلف عن الخط التقليدي الغربي الكلاسيكي. غير أننا إذا ابتعدنا عن هذا الحكم ندرك أن الاهتمام الغربي بالحضارات الشرقية يشكل في حد ذاته فصل مضيء من الثقافة والحضارة الأوروبيتين في الفترة الحديثة[48].

لهذا يرى المفكر الأديب السوري محمد كرد علي (1876م-1953م) أنه لولا عناية المستعربين، من المستشرقين، بإحياء آثار المسلمين لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذوها من كتب طبقات الصحابة، وكتاب "طبقات الحفاظ" للموسوعي جلال الدين السيوطي (1445م-1505م)، وكتاب "معجم ما استعجم من الأسماء والمواضع" للموسوعي عبد الله البكري الأندلسي (1040م-1094م)، و"فتوح البلدان" للمؤرخ والراوية أحمد بن يحي البلاذري (820م-892م)، و"الفهرست" للأديب وكاتب السيرة محمد بن النديم (توفي 990م)، و"مفاتيح العلوم" لعالم الرياضيات والفلك والجغرافيا محمد بن موسى الخوارزمي (توفي 850م)، و"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" للطبيب المؤرخ أبو العباس بن أبي أصيبعة (1203م-1270م)، و"إخبار العلماء بأخبار الحكماء" للمؤرخ الطبيب جمال الدين القفطي (1172م-1248م)، ... إلى عشرات من كتب الجغرافيا والرحلات التي فتحت أمام المسلمين معرفة بلاد المسلمين في الماضي، والوقوف على درجة حضارتها. ولولا إحياؤهم "تاريخ" الطبري (839م-923م) وابن الأثير (1160م-1233م) وأبي الفداء (1273م-1331م) واليعقوبي (توفي 897م) والدينوري (828م-

889م) والمسعودي (896م-956م) وأمثالهم، لجهل المسلمون تاريخهم. رغم أن بعض المستشرقين كانت لهم أغراض غير علمية، وتقف وراءهم مؤسسات مريبة أو استعمارية، لكن هذه الجهود التي اضطلعت بهذا الموقف انكشفت، ولم تعد جهودها بارزة وملموسة. وتعتبر الأغراض العلمية والمنصفة للمستشرقين، مع وجود بعض السلبيات (لأسباب متعددة)، أكثر إيجابية في هذا المضمار في كشف تاريخ المسلمين وإبرازه والحفاظ عليه. لذلك يعتبر الباحث بحق أن جهود المستشرقين في كشف التاريخ الإسلامي جهود رائدة وعظيمة تستحق التقدير والإشادة. إذ لو لم يبادر المستشرقون إلى تحقيق المخطوطات ودرسها وفهرستها فهرسة كاملة ونشرها لكانت ما تزال قابعة سجينة الخزائن[49]، ضف لذلك المجلات المختصة، الطافحة بالدراسات والتحقيقات والنصوص والمستندات التي تشكل ذخرا تراثيا هائلا[50].

لقد كان لإنشاء "الموسوعة الإسلامية"، والمجلات المتخصصة في الدراسات الإسلامية أثرها في إثراء الحركة العلمية العربية، ونشر التراث وتحقيقه على أحدث الطرق العلمية الحديثة، وامتازت بمنهجية صارمة، وتوثيق للمصادر والمراجع قلّ نظيره، بالرغم من بعض الأخطاء التي لا مناص منها في هذه الحالات. وبفضل المستشرقين ظهر جيل جديد من الباحثين العرب تعلموا على أيديهم مناهج البحوث العلمية الصارمة، وقلدوهم في طرق البحث والتقصي والتحقيق والتدقيق والصبر والمثابرة، وتشبعوا بالمناهج العلمية الحديثة، ودرسوا الطرق والوسائل التي استخدمها أساتذتهم في دراسة تراثهم. وعندما رجعوا إلى بلدانهم باشروا مهماتهم العلمية، بعد تطبيق تلك المنهجيات التي تلقوها في الجامعات الغربية، فأحسنوا تحقيق تراثهم، وحللوا معارفهم، وتناولوا قضاياهم بتلك الروح العلمية الموضوعية والدقة في المنهجية، وردوا على مطاعن المستشرقين باستخدام نفس الأسلحة التي استخدمها أساتذتهم، فساعد ذلك على اتجاه الدراسات الإسلامية نحو الموضوعية والعلمية والحيادية[51].

2.5. النقد السلبي

اختصر المحقق الفقيه عبد العظيم الديب (1929م-2010م) جهد المستشرقين في نشر تراث "الفرق والإحن وكل ما يؤدي إشاعته ونشره إلى تجديد النزاع بكل صوره، الفكري والمذهبي والسياسي. كل ما يفقدنا الثقة بماضينا وأمجادنا ورجالنا وقادتنا ويكفيهم ألف ليلة والأغاني"[52]. ومن هنات المستشرقين ما كتبه كراتشوفسكي لشقيقته: "إن اللغة العربية تزداد صعوبة، كلما ازداد المرء دراسة لها". ورد الديب ذلك للعجز فطري والعجمة الموروثة[53].

كما يتهم الشرق (المسلمون)، بعد أن كان مادة خاضعة للتاريخ وللدراسة ويبحث عن روحه الخاصة في مرآة البحث الاستشراقي الأوروبي دون أن يجدها في الماضي أو الحاضر، يتهم الشرق الاستشراق، الذي اهتم به لثلاثة قرون رافضا الاعتراف بصحة رؤيته وصدق أقواله، يتهمه أنه سبب مشاكله ومخاوفه وشكوكه[54]. هذا حقيقة لكن لا يجب تعميم الأمر على كل الدراسات الاستشراقية، فكثير من المستشرقين وقفوا إلى جانب الشعوب المستعمَرة. إن طلب الشرق من المستشرقين أن يبحثوا بروح شرقية غير ممكن لأنه يؤدي بالمستشرق إلى رفض الذات والوعي الذاتي، الذي هو هدف حياته. يجب على الشرق كسر عقدة الشك والحقد، والتخلص من أزمة شكه في الاستشراق[55]، لأن ما قد يبدو تنويرا ثقافيا في عمل المستشرقين هو ظاهرة معكوسة، كما أشار مالك بن نبي لذلك عند حديثه عن دور الاستشراق في تنمية شخصيته الفكرية. لكن هذا الاعتراف بقيمة الاستشراق لم يمنعه من نقده بعد ذلك، وتوضيح قيمة الوعي التاريخي بمشكلاته، خاصة عندما تُنفى الذات عن وجودها، لأن الافتخار بأمجاد الماضي في زمن الاحتلال له ما يبرره في مقاومة الاستيلاب الثقافي وبناء الشخصية، ولكنه يصبح بمثابة الأفيون أو المخدر لأنه يبعدنا عن حقائق العلم[56]، "فالأدب الذي ينشد عصر الأنوار للحضارة الإسلامية يؤدي هذين الدورين: أنه أتاح، في مرحلة معينة، الجواب اللائق للتحدي الثقافي الغربي وحافظ هكذا، مع عوامل أخرى، على

الشخصية الإسلامية، ولكنه من ناحية أخرى، صب في هذه الشخصية الإعجاب بالشيء الغريب، ولم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية والميكانيك"[57].

إن ما قدمه المستشرقون من دراسات عن العالم الإسلامي وتراثه تميزت في أكثرها بالمنهج العلمي المتين، وكانوا يمتلكون ثمرات كدهم العلمي من حجج وبراهين، أما أهدافهم فكانت مختلفة متباينة بل ومتناقضة، ولقد كاد هذا التناقض بينهم يختفي تحت واجهة الطابع العلمي، لكنه لم يخف نزعة الشك والتحامل على الكثير من صفحات التاريخ الإسلامي، وبأسلوب يصل إلى حد الكشف الواضح عن نفسه. وقد تنبه إلى ذلك التحامل عدد من مفكري الغرب ذاته قبل أن ينتبه إليه مفكرو المسلمين[58].

إن لجوء المستشرقين، في مناهجهم، إلى قانون المقابلة والمطابقة في النصوص والإبداع فيها، لإتقانهم العديد من اللغات القديمة والحديثة، ولصبرهم الدؤوب على البحث والتقصي كانت نتيجته في تحقيق النصوص غالبا ما تكون صحيحة لأنها تنصب على نصوص محددة متناثرة يسهل إجراء المطابقات عليها. إلا أن النتائج العلمية المستخلصة من هذه الطريقة لا تكون في الغالب متفقة والمبادئ الإسلامية، والنظرة الموضوعية لأفكار العرب والمسلمين، لأن المستشرقين يحاولون تحريف هذه النصوص وتفسيرها وتحليلها وصولا بها إلى نتائج علمية افترضوها منذ البداية، وحاولوا خلال دراستهم لها تطويعها إلى هذه الأفكار المسبقة التي لا تتفق عادة والبحث العلمي النزيه. فالمستشرقون إذا ذكروا الرسول محمد (ص) يصنفونه مع أنبياء الفرس وحكمائهم، وذلك عندما يعقدون المقابلات بينه وبين زرادشت ("نبي" فارسي قديم) وماني ("نبي" ولد ببابل سنة 216م، وصُلب حوالي 277م) حول الإسراء والمعراج والاتصال بالملكوت الأعلى. وهكذا يصبح المنهج التاريخي أداة لمحو النبوة المحمدية وتفسيرها ضمن النبوءات الأخرى التاريخية. وهو بذلك يقوم على فكرة مسبقة وعلى تميُز حضاري وتعصب ديني. قل نفس الأمر على المنهج التحليلي والمنهج الإسقاطي ومنهج الأثر والتأثر.

إن مناهج المستشرقين في مجملها هي مناهج غربية، نشأت في بيئات معينة، وواجهت ظروفا

خاصة، وقضايا محددة، وهي تختلف من مكان لآخر ومن مرحلة زمنية إلى أخرى. عالجت جزئيات متناثرة من الدراسات الإسلامية، وأصدرت عليها أحكامها القاطعة دونما اعتبار للقيم الثابتة والشمولية، والمبادئ الكلية التي تعالج الظاهرة المدروسة من جميع جوانبها. علما أن الإسلام وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها أو تفتيتها، أو الأخذ بفرع منها دون الآخر، فكل عنصر منها متصل بباقي العناصر، وهكذا تكاملت تعاليمه الاجتماعية الأخلاقية والتربوية، وعلى الباحث معالجة هذه الأمور مجتمعة لا متفرقة، وهو أمر مخالف لما جاء به المستشرقون، فجاءت مناهجهم قاصرة في مجال الدراسات الإسلامية[59].

وهناك جانب إيديولوجي في أطروحاتهم ونهجهم البحثي عند تناولهم لقضايا العقيدة أو القرآن أو السنة النبوية. وهذا الجانب يمكن بسهولة تبين جوانبه السلبية. "بالإضافة إلى أن المستشرق ينطلق من أرضية ثقافته الخاصة بإسقاطات غير عادلة عند التناول والتقييم، ومن منطلقات الفكر الأوروبي نفسه في مراحل تفوقه إلى القرن 20م، وهي مرحلة البورجوازية فالإمبريالية"، على حد تعبير الباحث العراقي الدكتور حسام الألوسي (1936م-2013م)، الذي يرى أن الإشكالية التي وقع فيها الاستشراق، التقليدي منه والحديث، أن نظرة أصحابه إلى العرب والإسلام كانت، في قسم غير قليل منها، نظرة سلبية غير عادلة، كادت أن تسيء إلى غاية الاستشراق. وهذا التهميش والإقصاء والمركزية (الأنا)، وتجريد الآخر المختلف من كل صفات النبوغ والتحضر والعقلانية، تخالف وتناقض جهود شريحة مهمة من المستشرقين الذين تحدثوا عن حضارة عربية إسلامية أصيلة ومتميزة، وكشفوا عن تاريخ وآثار تنم عن تصور غير مسبوق لحضارات عريقة في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية، وهذا ما جعل الكثير من الباحثين الغربيين ينتقد هذا التحيز والتحامل والتعصب. وهذا ما طرحه المفكر السويسري تيري هانتش (1944م-2005م) في كتابه "الشرق المتخيل" الذي اعتبر أن التاريخ الغربي شوه بالفعل حقائق من خلال الاستشراق، وسكت بشكل نسقي عن كل العطاءات العلمية والحضارية العربية وغيرها من المنجزات العلمية والفكرية الشامخة. ويُرجع

هانتش هذه الأسباب، وهي واهية، إلى أن الغرب منفصم "بين الإعجاب بالعلم العربي والعنصرية المناهضة للإسلام"[60]. فهل يمكن أن يكون هذا التبرير مسلكا للتحامل والتزييف للحقائق التاريخية وكأبحاث ودراسات للحضارة الإسلامية؟

ولهذا وجد بعض الباحثين العرب من يعتقد أن الاستشراق شب وترعرع في حضن النظام الفكري الغربي الذي ساد أوروبا في القرن 19م، وأن المستشرق الذي ينكب على دراسة الشرق، سكانه وأحواله وحضارته لا يمكن أن يبقى بمعزل عن التأثر بشكل أو بآخر بهذا الفكر، حتى المستشرق الذي لم يعمل من خلال المؤسسات الاستعمارية، لا بد أن يتأثر بهذا النظام الفكري والمركزية الغربية التي ترى تفوقها وأحقيتها بالهيمنة وأنها مركز العالم وحضارته، وهذا يستتبع في رأيهم عدم الإنصاف والتحيز والعنصرية في بعض الأحيان[61].

إن جهود الاستشراق تضاءلت أمام بلاغة القرآن، ومن العرب من يرى أن المستشرقين أضاعوا المفاتيح البيانية للدخول إلى رحاب القرآن يوم قالوا ببشريته، مما أنساهم قدس الوحي وربانيته (لدى المسلمين)، فراحوا يبحثون في سيرة الرسول الكريم لعلهم يعثرون عن مصدر للقرآن[62]. كما غلَب المستشرقون أمورا ليست ذات قيمة تاريخية على حقائق ثابتة بطريق تحقيق مخطوطات لم تنل عناية الماضي، فجعلوا لها حاضرا درسوا من خلاله الماضي، فنشرت دواوين وأشعار وفلسفات طائفية وآراء فقهية متهافتة لم يلتفت الماضي الزاهر لها. فجعلوا حولها أطرا "لدراسات اجتماعية سياسية وأخرجوا من خلالها دراسات لتحليل الفرد العربي والمجتمع العربي ربما لا تصل إلى مرتبة القبول فجعلوا منها حقائق ثابتة"[63]. وحتى بعد أن أثبتوا عظمة الماضي نسبوه إلى غير العرب (الفرس، الهنود، اليونان، الرومان)[64].

ماذا استفاد الشرقيون، الذين كانوا يعانون المجاعة والأمراض والأوبئة والفقر والتشرد والقهر، من كتابات المستشرقين الأكاديمية والمجلداتية مقارنة بما استفاده الغرب؟ لم تكن في نظر البعض من الشرقيين سوى تحصيل حاصل، وكلام وأحكام أسقطت على تراثهم، الذي هو في كل الأحوال يبقى تراث لا أكثر، وينسب للماضي لا للحاضر والمستقبل، فقد أقر نولدكه سنة

1887م أن عمله وجهده الذي قدمه للشرق طول حياته يتلخص في "المنزلة الوضيعة" للشعوب الشرقية[65]. وقد لخص الديب كل عناية المستشرقين بالتراث في أنها كانت وما زالت وستظل من باب "اعرف عدوك". لهذا فضَّل أن يفنى التراث على أن يقع بين يدي المستشرقين وإن حفظوه، قال: "ومن أعجب العجب، أن تجد أمة – مثل أمتنا – تشكر وتمجد وتعظم أمر سارقي وثائقها لمجرد أنهم احتفظوا بها، أو قدموا إليها صورة منها، وعهدي بالدول الواعية، أنها تفضل حرق وثائقها من أن تقع في يد أعدائها"[66]. إن أثر الاستشراق لا يقتصر على ما أظهره بعض محققيهم في المكتوب التراثي والتاريخي، بل تعدى ذلك إلى ما خلّفه من سلبيات الانحباس في التصدي له، جعل الشعوب العربية والإسلامية عاجزة عن النظر الموضوعي إلى ما في حضارتها بهدوء وراحة بال[67].

خاتمة

خلاصة هذه الورقة العلمية عن "مساهمة الاستشراق في الحفاظ على التراث العربي الإسلامي المخطوط" هي أن المستشرقين وقعوا بأخطاء بعضها كان متعمدا، وبعضها كان غير ذلك، ومع هذا فقد حفظ المستشرقون ما أفاد هذا التراث حين انصرفوا إلى تحقيقه وفهرسته وتوثيقه بموضوعية وجدية. لهذا يجب أن يأخذ العرب والمسلمين من تراثهم وحضارة أمتهم العريقة ما يكفل لهم بناء المستقبل، باستعانة المناهج الحديثة وتوظيف الفكر في إقامة هذا البناء. مع ضرورة عدم إقحام المسائل الإيمانية (الاعتقادية) في البحث التاريخي للوصول لمعرفة علمية بحتة، والمسلمون أولى بدراسة تاريخهم. وكما أن الشرق العريق في التاريخ، أكثر من الغرب نفسه، اتسع فضاؤه الثقافي للاستشراق وثقافته، بسلبياته وإيجابياته، سيصبح ثقافة تراثية، تبقى جزءا من تاريخ وموروث المسلمين بغير أقلامهم، كما أضحى الاستعمار قبله، وإن كان لا يمثل في حقيقة الأمر سوى حلقة جديدة أضيفت لحلقات سلسلة الثقافة العربية الإسلامية. لقد سبق لهذا التراث الثقافي الإسلامي أن تعامل مع فكر وثقافات غربية وشرقية، كانت وافدة كما وفد الاستشراق، ما صَلُح منه بقي وغير ذلك ذهب.

الهوامش:

1/ نقلا عن الطرنيشي عبد القادر: **الاستشراق في ضوء ما كتبه إدوارد سعيد**، 8.5 k،

https://blogs.aljazeera.net/blogs/2018/3/6/%D8%A7%D9%84%D8%A7.%D8%%

2/ رياض هاشم هادي: **الحركة الاستشراقية دراسة تحليلية**، لبنان، دار الكتب العلمية، د. ت، ص 52،

https://books.google.dz/books?id=JSpHDwAAQBAJ&pg=PA52&lpg=P.A52&dq=%D8%A7%D9

3/ الطيب بن إبراهيم: **الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه (خاصة في الجزائر)**، الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، 2009، ص ص 34، 35، 36.

4/ ساسي الحاج سالم: **نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية**، الجزء 1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2002، ص 160.

5/ عبد العزيز بن سعد الدغيثر: **المستشرقون وخدمة التراث**،

https://www.alukah.net/culture/0/106452/#ixzz6AoSuUSc3، تاريخ الإضافة 2016/8/8.

6/ العقيقي نجيب: **المستشرقون**، الجزء 1، الطبعة 5، القاهرة: دار المعارف، 2006، ص 146، كذلك الألوسي عادل: **التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طُبعت في الغرب**، القاهرة: دار الفكر العربي، 2001، ص 28.

7/ المستشرقون، جزء 2، ص 175، كذلك التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طُبعت في الغرب، ص 29.

8/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طُبعت في الغرب، ص 31، 32.

9/ محمد جمال الدين مختار: **الممتلكات الثقافية العربية والإسلامية المتسربة إلى الخارج من وجهة نظر الاتفاقيات والتشريعات القانونية الدولية**، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1991، ص 34.

10/ علي السيد وائل: **المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية**، القاهرة: مكتبة الآداب، 2013، ص 4.

11/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 13.

12/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طُبعت في الغرب، ص 34.

13/ البنداق محمد صالح: **المستشرقون وترجمة القرآن الكريم: عرض موجز بالمستندات لمواقف وآراء وفتاوى بشأن ترجمة القرآن الكريم**، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1980، ص 88، 89.

14/ إلهامي محمد: "حصاد الاستشراق-الإنجازات"، https://www.noonpost.com/content/6327، نشر بتاريخ 2015/04/19.

15/ عبد الله بن علي العليان: "الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف"، **الشرق**، https://al-sharq.com/opinion/05/01/2014/%D8%A7%D9%84%D8%.

16/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طُبعت في الغرب، ص 18.

17/ نقلا عن عوني محمد عبد الرؤوف: **جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة**، إعداد وتقديم: إيمان السعيد جلال، الجزء 1، القاهرة: مكتبة الآداب، 2011، ص 19.

18/ نقلا عن الجار الله سليمان: "المخطوطات الحديثية في الخزائن الروسية"، **مركز مداد للدراسات الاستشراقية**، http://www.fisalpro.net/?p=285، تاريخ الإضافة 2016/12/12.

19/ "المخطوطات الحديثية في الخزائن الروسية".

20/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 20.

21/ بلاسي محمد: "جهود المستشرقين"، **المجلة العربية**، http://www.arabicmagazine.com/arabic/ArticleDetails.aspx?id=2852، تاريخ الإضافة 2013/07/10.

22/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 209.

23/ "جهود المستشرقين"، كذلك المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 6.

24/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طبعت في الغرب، ص 35، 36.

25/ عبد المجيد اللبان إبراهيم: **المستشرقون والإسلام**، د. ب: مجمع البحوث الإسلامية، 1970، ص 20.

26/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 10.

27/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 5، 6.

28/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 5، 6.

29/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 6.

30/ زماني محمد حسن: **الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغرب**، ترجمة: محمد نور الدين عبد المنعم، إشراف: جابر عصفور، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010، ص 403 وص 73.

31/ جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، ص 37.

32/ ارحيلة عباس: "من جهود الدراسات الاستشراقية للنص القرآني (مدرسة نولدكه)"، **ملتقى أهل الحديث**، https://vb.tafsir.net/tafsir36495/#.XlfQrir0nIV، تاريخ الإضافة 2013/05/29.

33/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية ، ص 3.

34/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طبعت في الغرب، ص 79.

35/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 7، 8.

36/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طبعت في الغرب ، ص 84، 85.

37/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طبعت في الغرب ، ص 44 و50.

38/ المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، ص 22.

39/ عبد الله رائد أمير: "المستشرقون الألمان وجهودهم تجاه المخطوطات العربية الإسلامية"، **مجلة كلية العلوم الإسلامية**، المجلد الثامن، العدد 1/15، 1435هـ/2014م، جامعة الموصل، ص

40/ نقلا عن الساموك سعدون محمود: **الاستشراق أهدافه ومناهجه في الدراسات الإسلامية**، الأردن: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2008، ص 118 و121،

https://books.google.dz/books?id=4ATQCgAAQBAJ&pg=PA121&lpg=PA121&dq=%D8%A7%D

41/ الاستشراق أهدافه ومناهجه في الدراسات الإسلامية، ص ص 121، 122.

42/ فاضل جهاد: **نظرة أخرى على ظاهرة الاستشراق انكشاف المستشرقين الذين كانت لهم نظرة غير علمية، قراءة في كتاب عبد الله علي العليان: الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف**، في

https://www.raya.com/miscellaneous/2017/9/22/%d9%86%d8%b8%d8.%b1%d8%a9-

43/ المخطوطات الحديثية في الخزائن الروسية.

44/ المخطوطات الحديثية في الخزائن الروسية.

45/ اهتم بالمخطوطات العربية وبتحقيقها، زار مصر وسوريا ولبنان وفلسطين، مترددا على خزائن كتبها ومخطوطاتها. وقد نشر مخطوطتين عن الجغرافيا وعلم الفلك، وكتب عن إسبانيا المسلمة وجنوبي الجزيرة العربية، وله نظرة في مخطوطات المؤرخ الأديب الجغرافي أحمد بن طيفور(819م-893م) و"الأوراق" للراوية واللغوي والأديب أبي بكر الصولي (880م-946م)، وله كتاب "الحماسة" للشاعر أبي عبادة البحتري (820م-897م). وقد حقق المخطوطات العربية في مكتبات لينغراد، وفهرس المخطوطات العربية التي أهداها البطريك (كرسي أنطاكية) غريغوريوس الرابع (1859م-1928م) إلى القيصر نقولا الثاني (1868م-1918م). انظر **نظرة أخرى على ظاهرة الاستشراق انكشاف المستشرقين الذين كانت لهم نظرة غير علمية.**

46/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طبعت في الغرب، ص 51.

47/ الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه (خاصة في الجزائر)، ص 33، 34.

/84 Gabrieli Francesco : "Apologie de l'Orientalisme" traduit par Villard, Fernande, **Diogène** (revue trimestrielle publiée sous les auspices du conseil internationale de la philosophie et des sciences humaines et avec l'aide de l'UNESCO), n 50, 1965, Gallimard, p134..

49/ نظرة أخرى على ظاهرة الاستشراق انكشاف المستشرقين الذين كانت لهم نظرة غير علمية. لقد جمع المستشرقون المخطوطات الإسلامية من أماكنها في البلاد الإسلامية، ونقلوها إلى بلادهم. وسواء كان هذا الجمع بطريق مشروع، كالشراء أو الإذن، أو بطريق غير مشروع كالسرقة والغصب بقوة الاحتلال أو بالتحايل، فإنهم قد فعلوا ذلك في وقت لم تكن فيه البلاد الإسلامية مؤهلة لحفظ تراثها، وهناك قصص مفجعة لتراث كاد أن يحرق أو يتلف أو يضيع لجهل من وصلت إليه هذه الكنوز بأهمية وقيمة ما فيها، فإن بعض هذه المخطوطات كان يُباع فيها الحلوى، وبعضها كان صاحبه على استعداد لحرقه إن قيل له بضلال ما فيه، وإن لم يكن أهلا للتحقق من هذا الضلال من عدمه، وغير ذلك كثير. انظر حصاد الاستشراق-الإنجازات.

50/ المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص 92، 93.

51/ نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ص 160، 161.

52/ الديب عبد العظيم: **المستشرقون والتراث**، الطبعة 3، مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1992، ص 43. انظر عن "ألف ليلة" "المستشرقون والتراث"، صص 19، 20، 21. وعن "الأغاني" "المستشرقون والتراث"، ص 22. لكن هذا حكم على عينات غير وافية، لا تعطي صورة صادقة لحجم العمل الاستشراقي. انظر المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية ، ص 8.

53/ الديب عبد العظيم: **المنهج عند المستشرقين**، ص 354، في

.https://www.kutub-pdf.net/reading/gZPnb.html

54/ يتهم المسلمون الاستشراق بأنه كان مساعدا للاستعمار. انظر في هذا الشأن النملة علي بن إبراهيم: **الاستشراق والإسلام في المراجع العربية**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1430هـ، ص 17 ومايليها.

/ Apologie de l'Orientalisme: Op.cit., pp.136, 137 et 139 et 141.55

56/ من الواضح أن ابن بني وضع يده على المرض الذي تعانيه الأفكار في المجتمع المسلم، قائلا: "أن من أكثر البوادر دلالة على اتجاه مجتمع ما، هو اتجاه أفكاره، فإما أن تكون متجهة للأمام إلى المستقبل، أو إلى الخلف اتجاها متقهقرا، اتجاها ملتفتا إلى الماضي بصورة مَرضية. إن أثر هذا النوع من أدب المدح والتمجيد والإطراء على سير الأفكار واتجاهها في المجتمع الإسلامي يصير بين يدي أولئك الأخصائيين وسيلة عمل جهنمي في تحريك رحى الصراع الفكري المحتدم في بلادنا العربية.... وما الأدب المطنب في المدح والتمجيد لماضينا إلا وسائل إلفات في المجال السياسي أو في المجال الفكري، حتى يلتفت العالم الإسلامي عن أم مشكلاته، ألا وهي مشكلة حضارته، حتى يلفتوه عنها، ويربطوا اهتمامه بمشكلات وهمية، يتجلى عبثها بصورة مفجعة في ظرف من الظروف الخطيرة، والهزيمة المخجلة". انظر مالك بن نبي: **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**، في **القضايا الكبرى**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر المعاصر ودمشق: دار الفكر، 1991، إعادة 2000، ص 177.

57/ عبد الحكيم صايم: "الاستشراق وتحقيق مخطوطات تراثنا العقلي"، **الكلمة**، السنة 19، شتاء 2012،

http://kalema.net/home/article/view/1043

58/ التراث العربي والمستشرقون دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طُبعت في الغرب، ص 18، 19.

59/ نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، صص 164 و168 و224.

60/ الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف.

61/ الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف.

62/ "من جهود الدراسات الاستشراقية للنص القرآني (مدرسة نولدكه)".

63/ القول نقله الساموك عن التميمي عبد الملك: "الاستعمار الثقافي في منطقة الخليج العربي"، ص 127، **الباحث**، العدد 13، بيروت، 1980. انظر الاستشراق أهدافه ومناهجه في الدراسات الإسلامية، ص 24.

64/ الاستشراق أهدافه ومناهجه في الدراسات الإسلامية.

65/ الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه (خاصة في الجزائر)، ص 46.

66/ المستشرقون والتراث، ص 746، 747.

67/ نديم نجدي: **أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد. حسن حنفي. عبد الله العروي**، بيروت: دار الفارابي 2005، ص 12.

مظاهر من شؤون الأسرة في المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي "المعيار المعرب... " للشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي

Aspects of family affairs in the Islamic Maghreb through the fatwas of Al-Wansharisi “Al-Mi’yar Al-Mu’rab…” by Sheikh Ahmed bin Yahya Al-Wansharisi

أد. عبد القادر فكاير *

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة– الجزائر

s.bearcia@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/11/11	2024/12/04	2025/01/31

الملخص:

لقد ظل كتاب الفتاوي " المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب" للفقيه أحمد بن يحي الونشريسي محط استلهام لكثير من الباحثين من أجل تسليط الضوء على العديد من القضايا التي تضمنها في مجال التاريخ أو الاجتماع والاقتصاد أو الدين وغيرها. وفي مجال التاريخ الاجتماعي لمنطقة المغرب الإسلامي سنركز في هذا العرض على بعض المظاهر من شؤون الأسرة في المنطقة التي طرحت حولها فتاوى تضمنت مسائل الزواج من مهر ونفقة، وشؤون فض عقد الزواج كالطلاق والخلع، إلى جانب مسائل أسرية أخرى مثل دفع الزكاة لبعض أفراد الأسرة مثل الأيتام، والمرأة التي غاب عنها زوجها، للابن خارج النفقة، واليتيمة الفقيرة الخادمة في البيت...إلخ)، إلى جانب مظاهر أسرية أخرى. الهدف من هذه الدراسة هو الوقوف على بعض من مظاهر الحياة الاجتماعية وعلى الخصوص الأسرية التي كانت سائدة منطقة المغرب الإسلامي، من خلال طرح أفراد المجتمع قضاياهم والمسائل التي كانت تشغلهم في أمور

* المؤلف المرسل

الحياة أو الدين على شيوخهم. هذه المظاهر وغيرها خلدها الونشرسي في كتابه "المعيار..." والتي تعكس الواقع الذي كان يعيشه الناس منطقة المغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: أحمد الونشريسي؛ المعيار المعرب ؛ الأسرة؛ المغرب الإسلامي ؛ المجتمع؛ فتوى.

Abstract:

The book "Al-Mi'yar..." is considered one of the most important books that Ahmed Al-Wansharisi is famous for, as it contains jurisprudential fatwas that include social issues in addition to other economic, cultural, religious and other issues. In the specialization of the social history of the Islamic Maghreb, we will present in this research on some aspects of family affairs in the region around which fatwas were issued that included marriage issues such as dowry and maintenance within the family, and matters of dissolving the marriage contract such as divorce and khul', in addition to other family issues such as paying zakat to some family members, to orphans, to a woman whose husband is absent, to a son outside of maintenance, and to the poor orphan who serves in the house...etc.), in addition to other family aspects. The aim of this study is to stand on some aspects of social life, especially family issues that were prevalent in the Maghreb region, by members of society presenting their issues and the matters that occupied them in life or religion to their sheikhs. These and other phenomena were immortalized by Al-Wansharisi in his book "Al-Mi'yar..." which reflects the reality in which the people of the Islamic Maghreb region lived

Key words: Al-Wansharisi; Al-Mu'arib Standard; Family; Islamic Maghreb; Society; Fatwa.

مقدمة:

يعتبر كتاب "المعيار..." ومن أهم الكتب التي اشتهر بها الونشريسي، الذي يحتوي على نوازل فقهية فيها مسائل اجتماعية إلى جانب أخرى اقتصادية وثقافية ودينية وغيرها. تعتبر هذه النماذج من صورالحياة الاجتماعية التي خلدها الونشريسي عن أفراد مجتمع المغرب الإسلامي. والذين كانوا إذا حدثت لهم بعض الانشغالات الأسرية يلجئون إلى طرحها على القضاة أو الفقهاء والمفاتي. وكان هؤلاء يجدون لهم مخارج تستند على بعض المؤلفات الفقهية

وما يتلاءم مع طبيعة المجتمع. وقد ساهم ذلك في الانضباط الاجتماعي رغم الأوضاع السياسية غير مستقرة التي عاشها المغرب الإسلامي خلال الفترة التي عاش فيها الونشريسي خلال القرن الخامس عشر. وبناء على طرح الموضوع بالكيفية التي وردت في العنوان، فإن ذلك يوحي إلى عرض أحد المسائل الاجتماعية التي أفتى فيها الشيخ الونشريسي خلال الفترة المبينة، التي تميز بها مجتمع المغرب الإسلامي، والذي يتمحور حول إشكالية موضوعها "شؤون الأسرة في المغرب الإسلامي". ويتطلب هذا الإشكال وضع جملة من التساؤلات تتمثل على الخصوص: ما هي أهم المسائل الأسرية التي أفتى فيها الشيخ الونشريسي؟ كيف عالج الشيخ حالات تفككك الأسرة من طلاق وخلع ضمن التساؤلات التي طرحت عليه؟ إلى أي مدى تمكن الشيخ الونشريسي في معالجة المسائل الأسرية الأخرى مثل النفقة والحضانة ودفع الزكاة على مستوى أفراد الأسرة؟. ونظرا لغزارة فتاوي الفقهاء والعلماء التي جمعها الونشرسي حول هذا الجانب فإنني ركزت على نماذج لبعض الحالات الأسرية: في البداية رأيت من الضروري أن أضع تعريفا موجزا للونشريسي وكتابه " المعيار...". ثم تعرضت إلى بعض من الحالات الأسرية وهي: حالة الطلاق، الخلع، قضايا النفقة والحضانة بين أفراد الأسرة، دفع الزكاة على مستوى أفراد الأسرة، رعاية الصبيان وتعليمهم. إلى جانب بعض الشؤون الأسرية الأخرى.

1-التعريف بالفقيه وكتابه "المعيار...":

هو أحمد بن يحي بن محمد بن علي الونشريسي، وقد ورد في كتاب"أزهار الرياض" ملخص لسيرة حياته في جملة واحدة في قوله: «الإمام سيدي أحمد بن يحيى الوانشريسي المولد، التلمساني المنشأ والقراءة، الفاسي القبر والدار آخر عمره، بل أوسط عمره» (1).

ولد أحمد الونشريسي حوالي عام834 هـ، ولم يذكر الذين ترجموا له مكان ولادته. نشأ بمدينة تلمسان حيث درس على جماعة من الأعلام نذكر منهم أبو عبد الله بن العباس، والكفيف ابن مرزوق، وأبي الفضل قاسم العقباني، ومحمد بن أحمد بن قاسم العقباني، وأبو

أبعبد الله الجلاب، وشيوخ آخرين من تلمسان. تولى التدريس في تلمسان، وأهم الكتب التي درسها المدونة وفرعا الحاج وغيرهامن كتب الفقه المالكي، إلى جانب الفقه كان له اهتمامات بعلوم أخرى كالوثائق والأصول والتاريخ وعلم الفرائض ونظم الشعر،كما تولى الفتوى في تلمسان[2]. وتخرج على يديه عدد من العلماء نذكر منهم ابنه عبد الواحد، وأبو محمد عبد السميع المصمودي، وأبو زكرياء يحيى السوسي، وأبا عبد الله محمد الغرديس اللغليبي[3].

لقد اشتهر الونشريسي بشدة الشكيمة في الدين ولا يخشى أحدا في ذلك، ولذلك لم يكن له مع أمراء عصره اتصال كبير، على الرغم من أنهم كانوا في حاجة إليه. وبناء على هذا الموقف غير الودي مع الأمراء ما جعله يتعرض إلى مضايقات بل إلى تعرض داره إلى النهب، ولهذا اضطر إلى الهجرة مع عائلته إلى فاس في بداية سنة 874هـ/1470م. لقد وقعت له هذه الحادثة على ما يبدو في عهد السلطان محمد بن أبي ثابت المعروف بالمتوكل الذي كان له مزاجا معتلا، شكاكا فيمن حوله، فقد عزل هذا السلطان محمد القصار أيضا وهو خطيب جامع البيطار بوهران حسب عبد الباسط بن خليل في رحله[4].

وهناك في فاس تولى تدريس "المدونة وفرعي ابن الحاجب كما فعل في مدينة تلمسان، حيث درس الفقد بالمسجد المعلق بالشراطين بالقرويين ، عرف عن الونشريسي أنه كان فصيح اللسان وكذلك في الكتابة، ما جعل بعض من حضروا دروسه يقولون: « لو حضره سيبويه لأخذ النحو من فيه»[5].

وتميز بصفات ونعوت التي ذكرها أحد معاصريه الشيخ محمد ابن غازي في رسالة وجهها إلى الونشريسي عنوانها "بالإشارات الحسان المرفوعة إلى حبر فاس وتلمسان" نذكر منها: الفقيه، المدرس، العالم، الصدر، المحقق، الكبير، المفتي، الحجة، الخطير، الملحوظ، الأحفل، الأحظى، الأكمل [6]. وذكر ابن سودة صفات علمية أخرى: الفقيه العلامة، صاحب القلم، البحر الفهامة، واللسان الصريح، الفصيح، فريد دهره، وأعجوبة عصره»[7]. توفي الونشريسي في مدينة فاس سنة 914 هـ حسب أغلب ما ورد في كتب السير ، وفي هذه السنة استولى

الإسبان على مدينة وهران وعمره 80 سنة. كانت وفاته يوم الثلاثاء عشرين من صفر بمدينة فاس. وأنجب ولد سمه عبد الواحد[8].

وقد رثاه الفقيه عبد الله محمد ابن الحداد الوادي آشي ثم الغرناطي نزيل تلمسان بقصيدة نذكر منها هذا البيت.

رئيس ذوي الفتوى بغير منازع   وعارف أحكام النوازل الأوحد[9]

خلف الونشريسي الكثير من المؤلفات نذكر منها:"المعيار المعرب... "، "وكتاب إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك"، وكتاب "المنهج الفائق ...، وكتاب "الوفيات"، وعيرها[10]. ووقد وصف ابن مريم مصنفاته في قوله: « له تآليف كثيرة منها المعيار المعرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب في ستة أسفار جمع فأوعى وحصل فوعى، وتعليق على ابن الحاجب الفرعي في ثلاثة أسفار، ووقفت على بعضها وغنية المعاصر، والتالي في شرح وثائق الفشتالي، وكتاب القواعد في الفقه صغير محرر، والوثائق المسماة بالفائق في أحكام الوثائق وقفت عليه ولم يكتمل، وتأليف له في الفروق في مسائل الفقه وقفت عليه أيضا وغيرها»[11].

أما كتابه "المعيار ... " فيعد أهم الكتب التي ألفها الونشريسي. ونظرا لقيمته فقد ظلت هذه الموسوعة إلى اليوم محل اهتمام الدارسين في الكثير من التخصصات. وقد ذكر الونشريسي في مقدمته أنه جمع فيه فتاوي المتأخرين والمعاصرين من علماء وفقهاء المغرب الإسلامي والأندلس [12]. وقد رتب الونشريسي الفتاوي حسب أبواب الفقه المعهودة بداية من باب الطهارة. يتألف الكتاب من اثني عشر جزءا في النسخة المطبوعة. ولكن عند نهاية تأليفه وضعه الونشريسي في ستة أجزاء حسب ما ذكر الكتاني في كتابه "سلو الأنفاس"[13].. ليس هناك تاريخ محدد لبداية تأليفه، لكنه انتهى منه في سنة 901هـ (1496م) خلال وجوده بالمغرب[14] . وقد تم وضع في كل جزء مجموعة من النوازل الفقهية في شكل العديد من الأبواب.احتوى الجزء الأول على النوازل المتعلقة بالعبادات مثل الطهارة والصلاة والزكاة

والصوم وغيرها . أما الجزء الثاني فاحتوى على النوازل المتعلقة بالصيد والذبائح ونوازل النذور والأيمان، ونوازل والدماء والحدود والتعزيرات وغيرها. الجزء الثالث احتوى على نوازل النكاح وما يتعلق به. الجزء الرابع خصصه لنوازل الأحوال الشخصية مثل الخلع والنفقات والحضانة، وغيرها. أما الجزء الخامس فيحتوي على الشؤون الاقتصادية منها البيوع. يحتوي الجزء السادس على مسألة من الوصايا وقعت في بجاية وعلى الخصوص بين علميها محمد المشدالي وأحمد بن الشاط. الجزاء السابع احتوى على نوازل الأحباس والتعليم وعادات أهل المغرب الإسلامي والأندلس. الجزء الثامن يحتوي على المعاملات. الجزء التاسع احتوى على نوازل الضرر والبنيان والوديعة والعارية والهبات والصدقات وغيرها. أما الجزاء العاشر احتوى على نوازل الأقضية والشهادات والدعاوي والإيمان. الجزء الحادي عشر وضع فيه نوازل الإجازة في العليم والفتيا وحكم سماع الموسيقى وحلقات الذكر. الجزء الثاني عشر والأخير وضع فيه نوازل التليد عند العلماء وحكم القياس والتصوف والنسب وغيرها(15).

وفي النهاية نذكر أن الونشريسي قد استفاد في تأليف كتابه "المعيار" من خزانة أحد تلامذته وهو محمد الغرديس التغلبي الذي كان بيته بيت ثروة وعلم حسب ما ذكره أحمد المنجور في فهرسته أنه انتفع بخزانته التي كانت تحتوي العديد من الكتب في مخلف العلوم بما فيها النوازل. وبهذه الخزانة استعان الشيخ على تصنيف كتاب النوازل الذي سماه "المعيار المعرب..."، فإنما تيسرت له تلك النوازل لا سيما فتاوي أهل الأندلس من خزانة هذا الفقيه [وهو محمد الغرديس التغلبي]» (16).

2- حالات فض عقد الزواج:

2-1-الطلاق:

يعتبر من أهم المسائل التي تحدث في أي مجتمع وفي أي زمان، وقد أورد لنا الونشريسي في مصنفه العديد صور الطلاق التي عرضت على الفقهاء والقضاة والعلماء، وفيما يلي عرض لبعضها:

من مسائل الطلاق التي وقعت هي تطليق رجل لزوجته وهو في حالة غيبوبة ولا يعقل، فقد سئل فقهاء قرطبة عن حالة رجل يدعى أحمد بن عبادة كانت تعتريه حالات يفارق فيها عقله، ولا يعلم ما يفعل، وكلما أفاق من بعضها أخبره من حضره وهو في هذه الحالة أنه طلق زوجته "ستي" بالثلاث، وزعم هذا الرجل أنه لا يعلم بذلك، وصدقت الزوجة زوجها فيما حكاه من تطليقه إياها في الحالة التي غشي عليه فيها. فأجاب أحد الفقهاء يدعى ابن عتاب : « اليمين تلزم أحمد بن عبادة أنه لم يكن عالما بالطلاق، وأنه ما علم به بعد نفوذه ولا نواه ولا قصده ولا أراده، إن كان الأمر كما حكى له، وأنه كان في ذلك الوقت في غمرة من ذهاب عقله من العلة التي تطيف به وتقدم لتقاضي يمينه من تراه ثم يبقى مع زوجته على ما كان عليه هكذا نص الرواية». وأفتى شيخ آخر يدعى ابن القطان بما يوافق ذلك في المعنى إلا أنه لم يذكر تقدم مقتضى اليمين. وأجاب ابن مالك: «بسم الله الرحمن الرحيم، يا سيدي وولي ومن وفقه الله وعصمه، ولقاه الرشد فيما ألهمه. قال ابن القاسم عن ما أرى أن يحلف ما كان يعقل الذي كان صنع ولا يعلم شيئا منه، ويخلى بينه وبين أهله. قال عنه زياد : هذا إن شك الشهود هل كان حينئذ يعقل؟ »[17].

ومن قضايا الطلاق أن رجلا طلق امرأة بالثلاث له معها أولاد، وأراد السكنى مع أولاده في دار تلاصق دارها بعد نهاية العدة، سئل الشيخ السيوري عن ذلك: هل يبعد بينهما لتجنب ما قد يحدث بينهما من سوء التفاهم. فكان جوابه: أن عليه أن يبعد حتى يتم تجنب وقوع حوادث بينهما[18].

ومن مسائل الطلاق الأخرى سئل عنها بعض الشيوخ أن نساء مطلقات من أزواجهن المتوفين ووقع الخلاف بينها وبين الورثة في عدد الطلاقات. من هذه الحالات نذكر أن رجل توفي وأقرت زوجته أن زوجها طلقها طلقة واحدة وهي حالة عدة منه، بينما ادعى الورثة أنه طلقها ثلاثا. فأجاب الشيوخ: « القول قول الزوجة في الطلاق لآن الورثة مدعون ثلاثا وهي مقرة بواحدة، وأما قولها إنها في العدة، فإن تصادقت مع الورثة على تاريخ الطلاق، فالقول

قول الزوجة بينها وبين السنة. وإن اختلفا في التاريخ فذلك كاختلاف المتبايعين، ... قال أصبغ في "تاريخ العهدة": إن القول قول البائع. وقد قيل إن القول قول المشتري، وهو أحسن. وبه كان يفتي أبو إبراهيم. لأن البائع مدع لانقضاء السنة وهو يقول كان، والمشتري ينكر ويقول لم يكن، وكذلك المرأة مع الورثة، إن شاء الله» .

وهناك قضية طلاق مشابهة طرحت على أحد الشيوخ، تتمثل في ادعاء امرأة أن زوجها المتوفى عنها كان قد طلقها ثلاثا وهو مريض، بينما قال الورثة أنه كان صحيحا. أجاب الشيخ «القول قول الورثة، وهي مدعية أنه كان في المرض، فحمل هذا على الصحة إلا أن تأتي ببينة »[19].

وهناك حالة طلب الزوجة من زوجها أن يطلقها إثر وقوع حالة خصام بينهما، ووعدت أن ترد له الصداق، وبعدما طلقها امتنعت أن ترد له الصداق. سئل عنها القاضي أبو سالم سيدي ابراهيم اليزناسي، الذي أجاب: أن المسألة تحتاج إلى إشهاد في أمر الطلاق، ثم استند إلى رأي "الرداد" الذي يستند إلى بينه، ثم قال: «وإن لم تحضره بينة فهو مصدق والله مطلع على سره»[20].

وهناك حالات قيام بعض الناس بالحلف بالطلاق أن يقوم بأمر ما، ثم يخالف ما التزم به. من هذه الحالات سئل عنها اليزناسي،أن رجلان كانا يبيعان العسل يوم المولد النبوي الشريف، فقال أحدهما لصاحبه تبيع كيف نبيع؟ وأنت في يميني . فقال له نعم. فقال له عليه الطلاق حتى نبيع بدرهمين للرطل، وكانا يبيعانه بثلاثة دراهمللرطل، فباع معه بعض البعض بدرهمين، وبقي يبيع بعد ذلك بثلاثة دراهم، فجهز أحدهما متاعه بدرهمين، والآخر شط وحمله لداره. وكان يبيعه بدرهمين وثلاثة، فهل حنث أم لا؟.

أجاب الشيخ بما يلي: «سؤالكم فيه احتمالات من وجوه، ...أن كل واحد منهما إن كان التزم الطلاق أنه يبيع رطلا بدرهمين إما إنشاء أو اقتداء بيمين صاحبهوملتزما لما التزم، فباع بأكثر، حنث. وسواء با ع جميعه أو بعضه، لآن الحنث يقع بأقل الأشياء، أما الذي

شط له وعباه لداره ، فإن كان فعل ذلك هربا من بيعه بدرهمين مطلقا لا في هذا اليوم ولا فيما بعده، ثم باعه بعد ذلك أو بضعة بأكثر من درهمين حنث، وإن قال إنما إنما قصدت في هذا اليوم دون غيره، أو قال إنه لم يكن له نية في ذلك فلا يحنث إذا باع بعد ذلك بأكثر من درهمين، وبالله سبحانه التوفيق »[21].

ومن مسائل الطلاق التي عرضت على ابن رشد، أن رجلا طلق زوجته طلقة واحدة ثم حلف بالإيمان اللازمة ألا تكون له زوجة طول حياته، فما يكون حكمه. أجاب: « الظاهر من أمر هذا الحالف أنه حلف باللازمة على ترك المراجعة، فإن هو راجع لم يلزمه في الزوجة المراجعة بشيء، وليكفر ثلاث كفارات أيمان بالله على قول من يقول بذلك من أهل العلم، إلا أن تكون نية التزام حكم النازلة في تلك الوقعة بعد المراجعة، فلا سبيل إلى مراجعتها على هذا القصد، لأنه إن فعل لزمه فيها، وإن لم يقصد هذا فلا يلزمه طلاق إلا في زوجة أخرى إن كانت عنده يوم اليمين »[22].

2-2-الخلع:

عرف المالكية الخلع بأنه «الخلع شرعا هو الطلاق بعوض»[23]. وقد نص القرآن الكريم على هذه الحالة من انفصال الزوجة عن زوجها في قوله تعالى: ((... وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ...))[24]، لقد وردت العديد من قضايا الخلع في في كتاب المعيار، وفيما يلي نماذج منها:

كثيرا ما تثير مسألة الأبناء الجدل والأخذ والرد بين الزوجين عند انفصالهما، وفي حالة الخلع سئل أبو محمد عبد الله الوانغيلي عن امرأة اختلعت من زوجها وطلبت ألا يأخذ منها رضيعها منها. فأجاب أن المرأة التي خلعت زوجها ثم تزوجت فإن الحضانة تسقط عنها، وتلزم بدفع النفقة على ابنها للحاضن سواء كان الأب أو غيره [25].

وفي قضية الإنفاق على الإبن سؤل الشيخ سيدي ابراهيم قاسم العقباني عن مسألة كان قد سئل فيها ابن رشد عن من خالع امرأته على أن تتحمل الإنفاق على ابنه حتى البلوغ، راجعها بنكاح جديد، فهل تبقى عليها النفقة على ابنها ، وإذا طلقها زوجها مرة ثانية ، فهل تلزمها النفقة على ابنها مرة ثانية . فكان جوابه: أن النفقة تسقط عنها ، ولا تتحمل النفقة إن وقع الطلاق للمرة الثانية، إلا إذا وقع منها تحمل مسؤولية النفقة مرة أخرى(26).

وكانت بعض القضايا تحدث أزمة في ثبوت الانفصال بين الزوجين منها نطق الزوج ببعض العبارات الدالة على تطليقها ثم يزعم أنه لم يكن يقصد الطلاق مثل ما ورد في كتاب الونشريسي حالة من قال لزوجته إن أعطيتني كذا طلقتك، وهو بهذا القول يريد أن يدفعا إلى خلع نفسها منه، ثم زعم أنه لم يقصد الطلاق، حيث سئل ابن لب ليفتي عن هذه المسألة، فكان جوابه، أن على الزوج أداء اليمين بالله أنه ما كان يقصد بما فعل وقوع الطلاق(27).

وهناك قضايا خلع أخرى التي وقعت في منطقة المغرب الإسلام، منها أن تطلب امرأة الخلع من زوجها ، على ألا تتزوج مع رجل آخر إلا بعد مرور سنة. في هذه المسألة طرح على الشيخ ابن الحاج في هذا الموضوع، أن امرأة خلعت زوجها، وتضمن عقد الخلع هذا ألا تتزوج إلا بعد مرور سنة من وقوع الخلع، وإن خالفت الشرط وتزوجت قبل انقضاء العام، فهي ملزمة بأن تدفع له مائة "مثقال مرابطية" . وكان جواب الشيخين ابن الحاج وابن رشد أن «الخلع جائز والشرط باطل، ولها أن تتزوج قبل العام ولا شيء عليها بذلك»(28).

وطرح على الشيخ ابن عتاب أن رجلا طلق زوجته خلعا، وكان بينهما ابنا، ثم التزمت الزوجة بالإنفاق على ابنها لمدة سنة. بعد ذلك وقع الخلاف بينهما حول انقضاء مدة النفقة المشروطة عند وقوع الخلع، فذكر الرجل بقي من السنة شهران، أما المرأة فقالت أن السنة قد انتهت. فكان جواب ابن عتاب: ما قالته المرأة. أما جواب ابن القطان فذهب إلى ما قاله الزوج. وفي نهاية الفتوى حول هذه المسألة ورد أن قول أب يعمر هو الصواب،حيث قال بعضهم:«إن قولهم في هذا الفرع وفي الذي قبله أصح »(29).

3-مسائل النفقة والحضانة يين أفراد الأسرة:

إن قضايا النفقة والحضانة من المسائل المرتبطة بالأسرة التي كانت تشغل الناس في أي زمان وفيما يلي بعض النماذج التي أجاب عنها الفقهاء منهم والشيخ الشيخ أبو الحسن القابسي الذي سئل عن رجل له والد فقير وزوجه، فارتحل إلى الدمنة وليس به علة إلا رجاء في الصدقات وأخذها وتزويج امرأة وطلاق أخرى، ولا يبالي أضريرة كانت أو غيرها، فطلب ابنه في النفقة عليه، فقال له الإبن ارجع إلى القيروان وأنا أنفق عليك وتكون يدي مع يدك، فأبى. فهل يلزم الإبن النفقة عليه؟ فأجاب: « إن رجع إلى الإبن فأنفق عليه وقام بحوائجه على قدره فهو حسن، وإن أبي أن يرجع عند الإبن فهو قد تعلق بباب من أبواب التكسب ولا يحل له أن يأخذ صدقة فريضة، كان كمن عند غنى ولا تطوع إلا ممن يعلم أن عنده من ينفق عليه. فإن أبى من ترك ذلك على قاضي المسلمين أن يزجره عن ذلك »[30].

وكانت قضية حضانة الأبناء تحدث جدلا بين الطليقين، فقد سئل ابن عرفة وقوع طلاق بين زوجين وبينهما طفل صغير، واشترطت عليه أن يبقى ولدها تحت حضانتها لمدة عامين. غير أنها تزوجت خلال العامين، وطلقت قبل استتكمال العامين. وأراد الزوج أخذه بعدما صار عمره حولين. هل له الحق في ذلك؟ وكان جواب الشيخ ابن عرفة: لا يجوز له ذلك، وأن النكاح لا أثر له. ولكن إن تزوجت في المستقبل فله أن يأخذ ابنه[31].

ونفس المسألة حدثت في القاهرة، أن امرأة طلقها زوجها ولها منه ولد صغير تحت حضانتها، ولما خشيت أن يأخذه أبوه أعطته نصيبا من المال على ألا ينتزعنه منها حتى ولو تزوجت من رجل آخر، وإن انتزعه منها، طالبته بإرجاع المال إليها. ثم تزوجت المرأة ولم يقدم الأب على أخذ الولد، لكن الجدة هي التي فعلت ذلك. فرجعت الأم على الأب أنها دفعت المال على بقاء الولد لديها، وهو الآن ليس عندها. فهناك من أجاب بعض المشارقة: «لا رجوع لها وذلك مصيبة نزلت بها »[32]. وأجاب غيره، وصوبه المشرقي المذكور، «يبقى ولقائل أن يقول لا تصح هذه المعارضة. ولها الرجوع ولو لم تتزوج لأنه أخذ عوضا عما لا يملك حالة

المعارضة، لأن الولد إنما يمله بالتزويج، فهو كقولهم إذا أخذ عوضا عن إسقاط الشفعة قبل تقرر موجبها »[33].

وهناك مسألة شغلت بعض الناس وهي دفع الرجل النفقة لزوجته والتي لها أولاد من زوج آخر.حيث سئل الأستاذ أبو سعيد بين لب، هل تلزمه زكاة الفطر عنهم أم لا؟ فأجاب:«الذي يظهر من كلام الفقهاء أن ذلك يلزمه،لأن زكاة الفطر ليس وجوبها مرتبطا بوجوب النفقة ارتباطا مطلقا،بل لا بد من اعتبار السبب الموجب،وهو حق القرابة أو الملك،حتى إن النفقة إذا وجبت لعوض كنفقة الأجير فإن زكاة الفطر لا تجب معها. نص على ذلك ابن حبيب في الواضحة واللخمي في التبصرة. وهو وجه القول بعد لزوم الرجل إخراج زكاة الفطر عن زوجته،لأن قائل هذا يرى أن النفقة عوض الاستمتاع »[34].

وكان الإنفاق على اليتيم كثيرا ما يسترعي اهتمام الناس، ولكن هناك حالة سئل عنها الفقيه العزي يتعلق بالإنفاق على اليتيم الذي له مال. فكان جوابه:« أما المنفق على اليتيم له مال فإن كان ماله عينا وهو تحت يد من يمكنه التوصل إليه بلا مشقة فلا قيام له، وإن كان ماله عروضا أو عقارا أو حيوانا أو عينا لكن يتعذر الوصول إليه أو يتوصل إليه بكلفة أو مشقة ، فله القيام عليه.»[35].

4- دفع الزكاة على مستوى أفراد الأسرة:

تعد الزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام، لذا كان المسلمون في المغرب الإسلام تشغلهم بعض قضايا من تدفع لهم الزكاة في نطاق الأسرة، فكانوا يوجهون أسئلتهم إلي الفقهاء وفيما يلي ذكر لبعض هذه المسألة. فقد سئل بعض الإفريقيين عن أيتام تمنح لهم الزكاة، وعندهم خديم غير متق ولا يصلي، فهل يحرمون من نصيبهم من الزكاة بسببه، فأجاب: تعطى لهم الزكاة، أما حديمهم فيأكل منها بالإجارة، ثم أضاف أن لهم التصرف كيف شاءوا[36].

وسئل سيدي عبد الرحمن الوغليسي عن فقير سافر لأجل الحاجة التي لحقته وعليه دين كثير ولم يخلف لزوجته شيئا ولا يعرف أحد هل هو حي أو ميت، فلحق الزوجة من ذلك

ضرر كثير يعطى لها من الزكاة أم لا؟ ولم يكن ترك كفيلا ولا مالا. فأجاب: « تعطى إذا كانت على الحالة المذكورة والله أعلم»[37].

وسئل سيدي علي عثمان عمن قال زكاتي بيدك أصرفها حيث بدا لك، وعنده من أولاده من هو خارج عن نفقته ممن يطلب العلم وهو مستحق لها، هل له أن يعطيه أم لا؟ فإن منعتم، هل يلزمه غرمها إن فعل أم لا؟ فأجاب : له أن يعطي لهم كغيرهم من الفقراء والله أعلم[38].

وسئل الشيخ السيوري أن كافل يتيمة كان يطعمها ويكسوها، فهل يجوز إعطاؤها من مال الزكاة ما تحتاجه من أجل كسوتها أو ما تحتاجه في أمورها الخاصة أو حتى متطلبات زواجها، فكان جوابه: «والذي سمع من الشيخ ابن عرفة رحمه الله أنها تعطى الزكاة ما يلحها من ضروريات النكاح، والأمر الذي يراه القاضي حسنا في حق المحجور. وقيل الصواب إن قابل شيء من الزكاة خدمتها فلا تجزئي، لأنه قد صون بها ماله. وكذا إن لم يصون ويعلم أنها لو لم تخدمه لم يعطها شيئا فلا يعطيها أيضا »[39].

وفي مسألة أخرى سئل الشيخ السيوري أن فقيرات يعملن ولهن أخ يرعينه، فهل يجوز أن تعطين من مال الزكاة؟ فكان جواب الشيخ يصح أن يعطين من مال الزكاة[40].

وسئل الشيخ السيوري في مسألة أخرى، مع تغير نوع القرابة مفاده ، أن أحد الأبوين فقير وله ابن موسر (غني) ولم يطلب منه أن ينفق عليه. فهل يعطى نصيبا من الزكاة؟ فكان جوابه أن هذا الوالد يعطى من مال الزكاة، ثم أضاف «فإذا ترك الطلب فكأنه لم يكن له ولد »[41].

وسئل نفس الشيخ عن دفع مال الزكاة للأقارب وتفضيلهم عن غيرهم من المحتاجين الآخرين لمال الزكاة . فكان الجواب، لايجوز تفضيل الأقارب إلا في حالة شدة الفقر أو كانت عليهم ديون[42]. كما سئل الشيخ عن شخص منح كل أموال زكانته لأخته فأجاب: « ذلك يجزي عنه، وهو أفضل من جعل زكاته في غيرها»[43].

وسئل الشيخ أبو الحسن اللخمي عن نفس الموضوع المتعلق بدفع أموال الزكاة للأقارب،فكان جوابه:« اختلف المذهب في ذلك، واختار أن يفضل قرابته ويوسع عليهم، وهو الذي تقتضيه الأحاديث.(44).

وقال أبو الطيب القيرواني عن هذه المسألة: «إعطاء القرابة أولى عندي ممن يساويهم في الفقر، ويعطي على قلة الزكاة وكثرها. وإن كان لا يعطف عليهم وليس لهم مرفق فلا بأس بإعطائهم قوت سنة(45). وأجاب أبو عمران عن هذا الموضوع فقال:« له الإعطاء كما يعطي أمثالهم من فقرهم وحاجتهم وتعطفهم »(46). وفي نفس موضوع دفع الزكاة للقرابة سئل ابن رشد، فأجاب: « إن فعل أجزأه، وإن وجد أحوج منهم فالاختيار أن لا يخصهم»(47).

5- رعاية الصبيان وتعليمهم:

وقد ورد في كتاب المعيار بعض التساؤلات عن شؤون الصبيان ومنها ما يتعلق بما يمتلكون من حلي ودفعهم الزكاة. فقد سئل الإمام أبو عبد الله المازري عن حلي الصبيان، وهل في حليهم زكاة؟ أجاب الإمام: « أشار ابن شعبان إلى وجوب زكاة حلي الصبيان بناء على منع تحليتهم بذلك قياسا على الكبار لأنهم وإن لم يكونوا متعبدين في أنفسهم، فالبالغون الذين يملكون أمرهم مخاطبون فيهم على إجرائهم على حكم المكلفين وتمرينهم عليه في مثل هذه المعاني.(48).

وعن إحدى القضايا المتعلقة بتعليم الصبيان وهي مبالغة المعلم في ضرب الصبي، سئل القابسي عما إذا جاوز المؤدب الحد في ضرب الصبي فأجاب: « هذا معلوم ما فيه جهل لأني قدمت لا يضرب الصبي وهو غضبان. وضرب الصبي إنما هو بالدرة الرطبة المأمونة لئلا يؤثر أسر سوء. ويتجنب ضرب الرأس والوجه »(49). ثم استشهد بما ورد في هذا الموضوع في كتاب ابن سحنون: « لو ضرب صبيا ففقأ عينه أو كسر يده، فإن ضربه بالدرة على الأدب وأصابه بعودها فالدية على العاقلة إذ فعل ما يجوز له. فإذا مات الصبي فالدية على العاقلة بقسامة (50) وعليه الكفارة. وإن ضربه باللوح أو بعصى فقتله فعليه القصاص، لأنه لم يأذن

له أن يضربه بعصا ولا لوح. وإنما كانت الدية على العاقلة لأنه لم يقصد إليه المعلم فهو من الخطأ وفيه القسامة، لأنه إنما علم بإقرار المعلم على أحد الأقوال. ولو حضره شاهدان ومات في مقامه فلا قسامة والدية على العاقلة ألخ. وضرب الصبي بالعصى واللوح، المعلم فيه متعمد وليس له عذر إلا أنه غضب فتعدى فاستحق القود، وهو مأخوذ بإقراره في ذلك بلا قسامة. »(51).

وفي نفس سياق الحديث عن المعلم والصبيان، سئل ابن زيد عن المعلم إذا أخطأ فأراد أن يضرب صبيا فوقعت يده على صبي آخر، أو حذف الدرة على صبي فجاءت في آخر، وربما ضرب الصبي على شيء ثم تبين خلاف ما اعتقد ، فهل يتحلل من ذلك الصبي أو الأب، أم لا يجب عليه تحلل؟ فأجاب: « إذا فعل ذلك على وجه الخطأ فلا سيء عليه في الحكم ما لم يكن جرحا. ومن جهة التنزه فإنه يتحلل الصبي من ذلك وهو حسن، وليس بلازم. قيل وتجري على الخلاف في المجتهد يخطئ هل يعذر بخطئه أم لا؟ وذلك في مسائل مهورة. » (52).

وعن موت الصبيان بين يدي أهليهم سئل ابن عبد السلام عن موت الصبي بين أبويه في الفراش أثناء النوم، وليست هناك دراية أيهما رقد عليه. فأجاب: « لم أر فيها نصا، وعندي أنه هدر . قيل لابن عرفة : فما رأيكم فيها؟ فقال فيها كرأي ابن عبد السلام، وتؤخذ من قوله في ديات المدونة: ولا يدري من قتله»(53).

وطرحت على ابن زرب مسألة إذا أسلم يهودي صبي وهو ابن ثمانية أعوام هل يحال بينه وبين أمه التي تحضنه أو أبيه إذا كان حاضنا له؟ فأجاب: « فيه اختلاف . والذي أرى أن لا يحال بينه وبين من يحضنه أبا كان أو أما، فإذا كبر عرض عليه الإسلام ، فإن تمادى عليه وإلا ضرب وردد عليه الضرب حتى يتمادى على الإسلام .وقيل إن ابن كنانة يبلغ به القتل إذا تمادى على اليهودية، قال هذا تشديد ولا أقول به »(54).

6- شؤون أسرية أخرى:

ومن قضايا بر الوالدين، والالتزام ببعض الشعائر الدينية، سئل ابن أبي زيد عمن أراد الحج فمنعته والدته، أو أذنت له وهي كارهة. فأجاب: « تنبغي مبادرته للفرض، وليتلطف في رضاها، فإن لم ترض فليخرج إن شاء الله. وتنبغي المبادرة بالفرض، فإن التأخير لا يزيد إلا شرا ولا يأتي خير ينتظر وإنما استحب مالك الإقامة إلى اليمة الأخرى في منعه أبواه. »(55).

ودائما في سياق رعاية الوالدين سئل القابس عن خروج المعتكف من المسجد لمرض الوالدين أو موتهما. فأجاب : « إذا مات أبو المعتكف لم يخرج إليه ، وإن مرض خرج. والفرق بينهما أن في خروجه إليهما للمرض رفقا بهما، وإذا ماتا فإنما عليه إلا يضيعا، فإذا كان من يحفظهما حتى يدفنهما فما عليه غير ذلك»(56).

ومن المسائل الأسرية التي تقع بين الزوجين ما يتعلق بمؤخر المهر . فقد سئل الواغليسي أن رجلا توفي وترك زوجة لها عليه دين مهر ، وترك زرعا مخزونا وهو مقدار ما يفي بحقها من المهر، هل يجوز لها أن تأخذ عن دين مهرها. فأجاب: «لا يجوز أن تأخذ الزرع المذكور وهو مجهول المقدار، وحكم ذلك حجك البيع ، فلا يجوز إلا بعد الكيل أو بعد معرفة صفته. »(57).

وهناك مسألة اعتراف والدة لولدها الأكبر بدين، فقد سئل المازري أن امرأة اعترفت لابنها الأكبر بدين وهي فقيرة وفي حاجة ماسة إلى المال لإعالة أولادها الصغار، فهل يجوز إقرارها أم لا؟ فأجاب: « إن علمت بالميل» للمقر له في المرض المخوف فلا يفبل إقرارها، إلا أن يدل دليل على صدق إقرارها ، وإن كانت مائلة لمن سواه دونه جاز إقرارها، هذا المعول عليه في المدنوة» (58).

ومن قضايا الميراث سئل لبابة أن رجلا مريضا قد أقر لابنه بماب أو لأحد من ورثته بدين، فأجاب: « إن كان مرضه مدنفا مؤيسا منه فإقراره غير جائز لأنهم ورثته، وإن كان مرضا يخرج معه إلى المسجد وغيره المدة بعد المدة فإقراره جائز»(59).

وفي نفس موضوع الإقرار بالدين، لكن في حالة وصي على أيتام، فقد سئل ابن الحاج عن إقرار الوصي بدين على أيتامه، فهل يلزمه أم لا؟ فأجاب: « إقرار الوصي بدين على أيتامه على وجهين، فإن كان فيما ولي على أيتامه المعاملة فيه فهو نافذ عليهم، وهو كالإقرار على نفسه، وإن لم يكن فيما وليه مثل أن يقؤ على تركة الميت بدين أو شبه ذلك فإقراره كالشهادة منه وكذلك الأب »(60).

تعتبر العناوين الرئيسية عناوين شاملة لمجموعة من المعلومات التي تحوي ضمنها مجموعة من العناوين الفرعية التي يمكن أن تحوي بدورها العناوين الثانوية والتي تحوي بدورها معلومات كثيرة يمكن أن تقسم إلى نقاط متعددة.

خاتمة:

إن أهم ما يمكن استخلاصه من هذا العرض نذكره فيما يلي:

1- يعد أحمد الونشريسي من بين أهم الشخصيات العلمية التي عاشت في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بناء على منتوجه العلمي من الكتب والتي يأتي على رأسها كتاب "المعيار المعرب..." الذي يعد من أهم كتب النوازل، الذي عالج الكثير من الفتاوي والمسائل الفقهية التي كانت تشغل أفراد المجتمع في المغربي الإسلامي .

2- إن كتاب المعيار بما يحتويه من النوازل والفتاوى يعكس صورة تفاعل مجتمع المغرب الإسلامي في من مختلف الجوانب الاقتصادية والإجتماعية الثقافية والدينة وغيرها خلال الفترة التي عاش فيها أحمد الونشريسي رغم ما كانت تعيشه المنطقة من أوضاع سياسية غير مستقرة خلال القرن الخامس عشر.

3- بناء على تصفح بعض الأجزاء من كتاب "المعيار..." استوقفتني بعض المظاهر من الحياة الأسرية في المنطقة وهي حالة الطلاق، الخلع، قضايا النفقة والحضانة بين أفراد الأسرة، دفع الزكاة على مستوى أفراد الأسرة رعاية الصبيان وتعليمهم. إلى جانب بعض الشؤون الأسرية الأخرى. والتي عرضت بعضا منها في هذا البحث.

4- من خلال عرض هذه النماذج من الحياة الأسرية في مجتمع المغرب الإسلامي نستخلص أن كتاب المعيار الذي استخرجت منه هذه الحالات. فإنه يعد مرآة لحالة المجتمع في المنطقة الذي رصد قضايا مختلفة اجتماعية وسياسية وعلمية واقتصاديه ولهذا فإن هذه الموسوعة رغم أنها ألفت في القرن الخامس عشر إلا أنها مازالت إلي يومنا هذا مصدرا هاما وملجأ للباحثين يستلهمون منه انشغالاتهم البحثية كل في تخصصه.

5- لقد تميز الشيخ الونشريسي في كتابه "المعيار..." بأسلوب في الإجابة على الفتاوي التي كان نص أسئلتها على العموم قصيرة، وفي بعض الأحيان تكون طويلة. أما أجوبته فكانت في عمومها هي الأخرى ذات أسلوب مختصر، وأحيانا أخرى تكون إجاباته مطولة عندما يستشهد ببعض من آراء غيره من العلماء. وهذا ما يبين أنه كان واسع الاطلاع على أمهات الكتب في ميدان الفقه وغيره من العلوم الأخرى مثل علم الحديث والتفسير والتوحيد والمنطق، وهذا ما ساعده في نسج هذا الكتاب.

الهوامش:

(1) أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبط وتحقيق وتعليق: مصطفى السقا وآخران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1942، ج.3، ص63.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري(16-20)، الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزرع، الجزائر، 1981. ص. 119.

(3)محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الحق الكامل الكتاني وآخران، الجزء الثاني، دار الثقافة، الدار البيضاء،ص.172.

(4)سعد الله ، ص.119.

(5) أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976. ص. 50.

(6) المقري، ص.64.

(7) محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق حجي، طبعة 2، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص.50.

(8) أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، الجزء 1، موفم للنشر، الجزائر، 1991 ص.68.

(9) الكتاني، ج.2، ص. 173.

(10) سعد الله، ص.69.

(11) محمد بن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحقيق، محمد بن أبي شنب، نشر عبد الرحمن طالب، المطبعة الثعالبية ، الجزائر، 1908، ص.54.

(12) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، الجزء الأول، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، الطبعة الأولى، الرباط ، 1981 ، صص.1-2.

(13) الكتاني، ج.2، ص. 173.

(14) سعد الله، ص. 121.

(15) سعد الله، صص. 121-123.

(16) المنجور، صص. 51-52.

(17) الونشريسي،ج.4، صص. 84-85.

(18) الونشريسي، ج.3 ، ص. 270.

(19) الونشريسي، ج.4 ، ص.87.

(20) الونشريسي، ج.4 ، ص.94.

(21) الونشريسي، ج.4 ، ص.104.

(22) الونشريسي، ج.4 ، ص.193.

(23)عبد الرحمن الجزيري،كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، المجلد الرابع، دار الفكر،بيروت،1986،ص.391.

(24) «سورة البقرة: الآية 229».

(25) الونشريسي، ج.4 ، صص. 7،8.

(26) الونشريسي، ج.4 ، صص. 38-39.

(27) الونشريسي، ج.4 ، ص. 14.

(28) الونشريسي، ج.4 ، ص. 7.

(29) الونشريسي، ج.4 ، ص. 12.

(30) الونشريسي، ج.1، ص.386.

(31) الونشريسي، ج.4، ص.11.

(32) الونشريسي، ج.4، ص.11.

(33) الونشريسي، ج.4، ص.11.

(34) الونشريسي، ج.1، صص.401-402.

(35) الونشريسي، ج.4، ص.40.

(36) الونشريسي، ج.1، ص.383.

(37) الونشريسي، ج.1، ص.392.

(38) الونشريسي، ج.1، ص.390.

(39) الونشريسي، ج.1، ص.366-367.

(40) الونشريسي، ج.1، ص.367.

(41) الونشريسي، ج.1، ص.367.

(42) الونشريسي، ج.1، صص. 368-369.

(43) الونشريسي، ج.1، ص. 371.

(44) الونشريسي، ج.1، ص. 371.

(45) الونشريسي، ج.1، صص. 371-372.

(46) الونشريسي، ج.1، صص. 372.

(47) الونشريسي، ج.1، صص. 389.

(48) الونشريسي، ج.1، صص. 374.

(49) الونشريسي، ج.2، ص. 269.

(50) القسامة في اصطلاح الفقهاء هي الأيمان المكررة في دعوى القتل، يقسم بها أولياء القتيل لإثبات القتل على المتهم، أو يقسم بها المتهم على نفي القتل عن نفسه، وقد عرفها ابن عرفة كما يلي :القسامة

حلف خمسين يميناً أو جزئها على إثبات الدم. د. محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، الجزء الثالث، دار الفضيلة، القاهرة، ص. 86 .

(51) الونشريسي، ج.2، ص. 269.

(52) الونشريسي، ج.2، صص. 276-277.

(53) الونشريسي، ج.2، صص. 300.

(54) الونشريسي، ج.2، ص. 352.

(55) الونشريسي، ج.1، ص.437.

(56) الونشريسي، ج.1، ص.430.

(57) الونشريسي، ج.5، ص.89.

(58) الونشريسي، ج.10، ص.344.

(59) الونشريسي، ج.10 ، ص.358.

(60) الونشريسي، ج.10 ، ص.358.

البيبليوغرافيا:

ابن مريم، التلمساني، محمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحقيق، محمد بن أبي شنب، نشر عبد الرحمن طالب، المطبعة الثعالبية ، الجزائر، 1908.

التلمساني، أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبط وتحقيق وتعليق: مصطفى السقا وآخران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1942.

الجزيري، عبد الرحمن، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، المجلد الرابع، دار الفكر،بيروت،1986.

الحفناوي، أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، الجزء 1، موفم للنشر، الجزائر، 1991.

سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري(16-20)، الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزرع، الجزائر، 1981.

الشفشاوني، محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق حجي، طبعة 2، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.

عبد المنعم، محمود عبد الرحمن، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، الجزء الثالث، دار الفضيلة، القاهرة.

الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الحق الكامل الكتاني وآخران، الجزء الثاني، دار الثقافة، الدار البيضاء.

المنجور، أحمد ، فهرس أحمد المنجور، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.

الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، الجزء الأول، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، الطبعة الأولى، الرباط ، 1981.

الونشريسي، ج.10.

الونشريسي، ج.2.

الونشريسي، ج.3.

الونشريسي، ج.5.

الونشريسي، ج.4

أهمية الكتابة التاريخية من خلال نازلة اليهود بتوات لعبد الكريم المغيلي.

The importance of historical writing through the incident of the jewes in Tuwat by Abd al-karim al-Mughili.

أ.د: منادي عثمان
جامعة محمد الشريف مساعدية. سوق اهراس – الجزائر
menadi.athmane@gmail.com

ط د. بروقي فاطمة الزهرة *
جامعة محمد الشريف مساعدية. سوق اهراس – الجزائر
Hanenbrouki@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/11/25	2024/12/23	2025/01/31

الملخص:

تنشد الدراسة تقصّي الدور الدّعوي الاصلاحي لعبد الكريم المغيلي، أحد أقطاب المالكية في الجزائر خلال القرن الخامس عشر الميلادي، وتفاعله مع بيئته الاجتماعية في توات جنوب الصحراء من خلال فتواه الشهيرة بشأن نازلة اليهود في الاقليم، وهي فتوى وإن أحدثت صدى واسعا وارتدادات عكسية من جهة، فإنها من جهة أخرى تفتح نافذة لإمكانية قراءة تاريخ المنطقة من خلالها.

الكلمات المفتاحية: عبد الكريم المغيلي، توات، النازلة، اليهود ...

Abstract:

The study seeks to investigate the role of the reformist advocacy of Abdul Karim Al-Mughili, one of the poles of the Malikis in Algeria during the fifteenth century AD, and his interaction with his social environment in sub-Saharan Toat through his advisory opinion on Jewish descent in the terittory ,It is a fatwa and has made a wide resonance and reverse bounces on the one hand, on the other hand it opens a window for the possibility of reading the region's history through it.

Key words: Abd al-Karim al-Mughili, Touat, descent, Jews...

* المؤلف المرسل

مقدمة:

لما كانت توات جزء ضمن منطقة المغرب الاسلامي فإنها ظلت تتأثر بالوضع السياسي العام للمنطقة، وبدت في القرن الخامس عشر الميلادي أكثر عرضة لاضطرابات محلية بالموازاة مع الإقليمية، لاسيما بعد ضعف السلطة الزيانية والمرينية والوطاسية، وانحسار نفوذهم تاركا فراغا شجّع على التحلل من تجاذباتهم والدخول في مرحلة عدم استقرار عبّرت عن وضع داخلي يفتقد لسلطة مركزية ضابطة، ويرشح الاقليم لوفادة جهود اصلاحية. وانطلاقا من مسؤوليته الدعوية وفد عبد الكريم المغيلي إلى إقليم توات في عمق الصحراء، حيث عاش العقود الأخيرة من حياته قريبا من قضايا عصره التي عايشها مجتهدا للخوض فيها، ولاسيما في أعقد مسائلها المرتبطة بنازلة اليهود التي استدعت استصدار فتوى نسبت إليه " فتوى المغيلي". وعليه قصد الإحاطة بالموضوع يمكن إثارة الإشكالية التالية: - ماهي الظروف والملابسات المحيطة بصدور الفتوى وآثارها؟ وماهي ارتداداتهّا؟ وإلى أيّ مدى يمكن استثمار فتوى النازلة في قراءة بعض جوانب تاريخ إقليم توات، قراءة متوازنة بين دواعي الجهود الإصلاحية وتطلعات التوافق؟.

1-تقديم عبد الكريم المغيلي: هو أبو عبد الله ابن عبد الكريم المغيلي، خاتمة المحققين والعاملين، وليد بلدة مغيلة[1] مطلع القرن التاسع هجري الموافق للخامس عشر الميلادي[2]، تلقى تعليمه الأولي في مسقط رأسه، حيث تلقى علوم اللغة العربية، وعلوم الفقه والمنطق، ثم انتقل إلى مدينة بجاية فالجزائر العاصمة، أتقن العلوم العقلية، وتوسعت مداركه في المذهب المالكي[3]، فكانت حياته مليئة بالأعمال النيّرة، ترك ثروة علمية قيّمة، وإنتاجا فكريا غزيرا في ميدان التأليف، ما يزال الكثير منه مخطوطا وبعضه محفوظا بين يدي تلاميذه وأحفادهم ونسلهم من بعدهم، نذكر منه: " مصباح الأرواح في أصول الفلاح".[4] وفي إطار عمله الإصلاحي خارج إقليم توات بالسودان الغربي، بلغه مقتل إبنه في ظروف غامضة، مما اضطره للعودة إلى توات التي استقر بزاويته فيها إلى أن وافته المنية عام 1504م / 911هـ[5].

ينتسب المغيلي إلى أسرة عريقة معروفة بالحسب والنسب والعلم، لها مكانتها العلمية والشهرة العالية، نبغ منها أعلام على سبيل المثال: الشيخ موسى بن يحي بن عيسى المغيلي المازوني[6]، كما حظي عصر المغيلي الذي عاش فيه بحظ معتبر من العلوم على أيدي كوكبة من العلماء نبغت في مجالات عديدة ومنهم: أحمد الونشريسي[7]، الإمام السيوطي[8]، كوّن علاقات بهم جعلت منه واحدا من وجهاء الشيوخ في العلم والمعرفة والوجاهة، مما أهّله للعب دور بارز ساهم في تشكيل المنطقة حضاريا بالمغرب الاسلامي شماله، وكذا جنوبه في عمق الصحراء، حيث إمارات وممالك السودان.

2-التعريف بمنطقة توات: إقليم توات مجموعة من واحات الصحراء الجزائرية الجنوبية الغربية، تشمل ثلاث جهات متباينة جغرافيا، ومتمايزة ديمغرافيا وهي (قورارة، تيدكلت، توات)[9]، احتلت المنطقة موقعا استراتيجيا هاما حيث شهدت الضفتان الشمالية والجنوبية للصحراء الكبرى تواصلا حضاريا عبر عصور طويلة، ومركزا غنيا نتيجة النشاط التجاري كونها " مجمع القوافل"[10] . وخلال القرن الخامس عشر الميلادي، كانت المنطقة من أكثر المناطق نشاطا في تسيير القوافل التجارية، فبرزت الأسواق التي لعبت دورا كبيرا في تجارة المغرب الاسلامي وإقليم السودان[11]. وأيضا تشرف المنطقة على طريق علمي- ثقافي لا يقل أهمية عن الطريق التجاري، ألا وهو الطريق الذي يسلكه الحجاج القادمون من سجلماسة، وشنقيط والمتوجهون نحو الحجاز عبر صحراء ليبيا ومصر، حيث حظيت قوافل الحج بأهمية بالغة في تنشيط الحركة العلمية في المحطات والمراكز التي تتوقف عندها[12].

تنوعت أهمية المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وعلميا، مما ساهمت في تشكيل العلاقات الحضارية إقليميا وكذا محليا، حيث بدت تركيبتها الاجتماعية منسجمة أحيانا ومتقاطعة أحيانا أخرى، وقد لعب فيها عنصر اليهود دورا مؤثرا استدعى تدخلا دعويا وإصلاحيا انبرى له الشيخ عبد الكريم المغيلي كما سيظهر لاحقا.

3-الظروف والملابسات المحيطة بصدور فتوى نازلة اليهود للمغيلي:

3. 1- الخلفية التاريخية لصدور الفتوى: غداة تحلل منطقة توات من التبعية المرينية ومن بعدها الوطّاسية على إثر ضعفهما اختل نظامها، وغدت مهملة سائبة من دون سلطة مركزية، يقتصر حكمها على شيوخ بلدتها، فعمّها فساد ومنكر عظيم[13]، وقد عبر عن ذلك قاضي الجماعة بتوات محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكري التمنطيطي بقوله: "وفي سنة 882هـ اثنتين وثمانين من القرن التاسع هجري جاء الشيخ سيد محمد بن عبد الكريم المغيلي لتوات ونزل بأولاد يعقوب من تمنطيط و كان ذلك أخر الدولة المرينية بالمغرب ووقت اختلال نظامها ووجد توات مهملة مقتصرا حكمها على شيوخ بلداتها". وهي الحالة نفسها وصفها المغيلي كاشفا بُعدها في أطراف الأرض حيث قال: "لا تكاد تجد ولدا ينصح ولدا ولا أحدا يوافق في مصلحة أحد وكيف لا؟ ولا أمير لهم يردعهم ولا شيخ يجمعهم ولا حاكم يفصل بينهم لا محكما عاجزا ولا سيفا عاجزا[14] ."

ومن خلال إفادة قاضي الجماعة بتوات محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي شاهدا على حكم المنطقة بشيوخها، حيث كانت تدير شؤونها هيئتان الأولى من الغلائف وهم شيوخ القبائل الذين يشرفون على إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالمنطقة، والثانية قاضي الجماعة الذي يتولى الفصل في المنازعات بين الأشخاص ويتولاها الشيخ عبد الله العصنوني وريثا لشيخه يحي بن يدير بعد وفاته[15]، تعرضت الهيئة الأولى هيئة شيوخ القبائل إلى اختراق من اليهود حيث تمت استمالتهم و شراء ذممهم بعطاءات اليهود قصد حمايتهم وعدم التعرض لهم من طرف المسلمين و تشجيعهم في بناء البيَع و الأسواق، والتوسع فيها متجاوزة الحدود بها و لاسيما في واحات توات التي أصبح إقليمها شبيها بالمملكة اليهودية التي تعددت مآخذها لتشمل:

- ✓ شكل يهود توات الفئة الغنية ذات الثراء الفاحش بين سكان المنطقة نتيجة المعاملات الربوية والتجارة غير المشروعة، مما أدى إلى تعزيز هيمنتهم على سكان المنطقة، حيث نجد الرحالة الجنوي "مالفانت" يصف تكاثرهم وسهولة حياتهم في ظل حياة رؤساء يدافعون على أتباعهم و كياناتهم[16].
- ✓ أحدث اليهود تغييرات في عادات وتقاليد المنطقة فاستبدلوا عادات التواتيين وتقاليدهم بعادات و تقاليد يهودية وسيطروا على الحياة الاقتصادية فيها فأضروا بدين التواتيين و نفوسهم و عقولهم[17].

بالإضافة إلى ذلك أقام اليهود في بلاد توات كنيسة[18]، يجدّدون بناءها ويوسعونها في أرض المسلميـــــن[19]، وأصبحت لهم حرية دينية جعلتهم يقيمون شعائرهم و طقوسهم بكل حرية و أمان داخل البلاد ويتصلون بأبناء ملتهم من دون قيود[20]. مما استدعى استصدار فتوى المغيلي[21].

3. 2– التعريف بفتوى النازلة: من منطلق رسالته الدعوية – الإصلاحية، تحمل المغيلي مسؤوليته، وتجاوب لإصلاح الوضع، وبالتالي الحاجة لموقف عملي، تمّ التعبير عنه بما ذكره ابن عسكر في دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، بعدما نوّه يبعض خصال المغيلي واستنكاره على اليهود سلوكهم بقوله: « وألف في ذلك تأليفا وجه فيه رسائل[22] قيّدها بهذه الصيغة: **"هذا تقييد نفيس فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار وما عليه يهود الزمان من الجرأة والطغيان للشيخ الإمام ومصباح الأنام العلامة الهمام ابن عبدالله سيد محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به ءآمين ءآمين ءآمين[23] ."**

يكتفي ابن عسكر هنا بالإشارة إلى أن المغيلي ألف تأليفا وجه فيه رسائل قيّدها بالصيغة المذكورة أعلاه، رغم تباين التسميات المرتبطة بالفتوى والتي تناولتها بالتحقيق والدراسة، على نحو ذكرها باسم مصباح الأرواح في أصول الفلاح حيناً، ورسالة إلى كل مسلم ومسلمة حيناً

آخر، بينما المغيلي صاحب الفتوى يذكرها في مخطوطه بصيغة هذا كتاب موجّه إلى كل مسلم ومسلمة، وإن كان المضمون يبقى نفسه في هذه الحالات المتباينة، متضمناً فصولاً ثلاثة غير مختلفة في العدد، والعناوين، والمضامين[24].

وبالنسبة لإطار الفتوى المكاني والزمني، فهنالك إجماع حول المكان بتمنطيط (بإقليم توات)، بينما إطارها الزمني لا يحظى بإجماع، وهنالك سنوات عديدة مطروحة منذ 865هـ تنتمي كلها للنصف الثاني من القرن التاسع للهجرة، متزامنة مع سنوات الميلاد منذ 1465م تنتمي كلها للنصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي[25]. بينما من حيث الصيغة فقد وردت كما هو معلوم في النوازل بصيغة سائل و مسؤول وإجابة على النحو التالي **"أما بعد فقد سألني بعض الأخيار عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار و عما يلزم أهل الذمّة من الجزية والصغار، وعما عليه أكثر اليهود هذا الزمان من التحدي والطغيان، فأقول والله المستعان"**[26] ويأتي قول المغيلي مدفوعا بدوافع تحمل توصيف الوضع العام الشاذ، وما يستدعيه من وجوب التدخل لإصلاحه، وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين، وهذا المعنى ورد بتعبيره الصريح من خلال عناوين ومضامين فصول الفتوى الثلاثة. ومن حيث المضمون يتسع كتاب فتوى المغيلي بشأن النازلة لمقدمة وثلاثة فصول، لها ترتيبها وموضوعها على النحو التالي:

- ✓ **المقدمة:** تتصدر كتاب الفتوى، موجزة محرّرة في سبعة عشر سطراً، يشمل مضمونها بعد حمد الله والصلاة على نبيّه المصطفى محمد ﷺ تسمية المخطوط بصيغة "هذا كتاب"، ثم تسمية المصدر من عند عبد ربه تعالى محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، ثم تحديد الجهة المعنية بالكتاب" إلى كل مسلم ومسلمة"، وربما يكون النسّاخ اعتمدوا اسم الجهة المرسل إليها الكتاب في تسمية هذا المخطوط بصيغة "رسالة إلى كل مسلم ومسلمة"، وتنتهي المقدمة بالصيغة العامة المعتادة في النازلة ، صيغة سائل و سؤال و جواب[27].

- ✓ **الفصل الاول**: بعنوان" فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار"، يتسع مضمونه نثراً وشعراً لست صفحات و خمسة أسطر حول الاقتصار على تبادل الموالاة بين المسلمين من دون الكافرين، والمرونة بينهم والشدّة على غيرهم، والتنبيه لشدة عداوة اليهود، لذلك يتعين اجتنابهم والاحتراز منهم، مع تأسيس موقفه من الكتاب والسنة[28].
- ✓ **الفصل الثاني**: العنوان "فيما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار"، يتسع لصفحتين ونصف، يتضمن تأكيداً على الزام اليهود " أهل الذمة " التقيّد بآداء الجزية وهم صاغرون، والمغالبة معهم في الدين[29].
- ✓ **الفصل الثالث**: بعنوان "فيما عليه يهود هذا الزمان في سائر الأوطان من الجرأة والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان"، يتسع لأربع صفحات، يعرض مضمونها بأن لا ذمة لليهود، مستنكرًا سلوكهم في توات وفي سائر الأوطان، محددا قواعد التعامل معهم بالحزم انتصارًا للشريعة الإسلامية[30].

3-3: مخطوط الفتوى قيد التحقيق: تناول الباحث حسين زيغمي التحقيق في المخطوط بعنوان " ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وما يلزم أهل الذّمة من الجزية والصغار" للشيخ المغيلي في رسالة بحث لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية للسنة الجامعية 2012-2013م بجامعة الجزائر قسم الشريعة والقانون تحت اشراف أ. د. عبد القادر بن عزوز، وقد ذكر من الأسباب الشخصية التي شجعته على التحقيق في المخطوط اقتناؤه لصورة المخطوط من مكتبات توات (قصر كوسام)، وهي كما يذكر واضحة ومقروءة، ومفهومة، عدد لوحاتها اثنتان وعشرون لوحة ، وأشار لوجود نسخة بقصر زاوية الشيخ المغيلي بأدرار ووجود أكثر من نسخة في المكتبة الوطنية[31]. و بعد تصفح الباحث للمخطوط وقف على مضمونه الذي يكتسي أهمية لاحتوائه على معطيات فقهية تاريخية ذات قيمة علمية، جديرة بالاهتمام والتحقيق والنشر، وقد أعطى وصفا للمخطوط في نسخه الثلاثة، تصفحهم و قارن بينهم، وأشار لمكان وجودهم بالخزانة البكرية بتمنطيط ولاية ادرار (النسخة الأولى

الأقدم) ومكتبة زهير فسام ولاية ورقلة (نسخة ثانية خاصة) ومكتبة كوسام ولاية ادرار (النسخة الثالثة) ، انتهاء بإخراج منتوج بحثه بعنوان رسالة علمية[32] .

4- آثار فتوى النازلة وارتداداتها: تهيأت لفتوى المغيلي بشأن نازلة اليهود في توات عوامل فاعلة، عززت قوتها و حجيتها، وبالتالي أثرها مرتبطة برمزية شخصيته الفكرية، و كذا طبيعة النازلة الدينية – و الدين له قدسيته – بالإضافة إلى الفئة الاجتماعية اليهودية المعنية النافذة في مواقع السلطة و المتسلطة على رقاب المجتمع التواتي المتطلع لتحفيف معاناتها، كلها عوامل ساهمت في خلق النازلة الشديدة، التي أحدثت أثرا متنوعا قطاعيا، و بليغا في بعده الزمني وامتداده المكاني[33].

4. 1: أثر فتوى المغيلي على واقع توات:

4. 1.1: الأثر السياسي لفتوى نازلة اليهود: انطلاقا من اعتبار كل مشروع حضاري لا ينأى بمعزل عن حضور السياسة، حضورا مضمرا أو ظاهرا. من الممكن إدراج فتوى المغيلي بشأن نازلة اليهود في توات ضمن مشروع حضاري، وإن كان غلافه دينيا، فإنه لا يلغي البعد السياسي الذي تولى صاحبه ترتيب أسباب نجاحه المحسوبة، ابتداء من استثمار السياق التاريخي لضعف الكيانات السياسية بالمنطقة المغاربية و تحلل توات من تبعيتها وغُدُوّها سائبة في المتناول، فضلا عن موقعها الجغرافي الموغل في عمق الصحراء بعيدا عن متناول أي سلطة خارجية، ثم التحاق المغيلي بإقليم توات واستقراره بين أولاد يعقوب بتمنطيط[34]. ومنذئذ بدأ نشاطه الدعوي الذي نعتقده يضمر البعد السياسي حيث شخّص واقع الإقليم المتدهور من حيث القيم و المبادئ، وجمع أمره على تصحيحها بالتوجيه و النصح من خلال تقليد قضائي استحدثه بالتحاقه بالسوق حيث يجلس للاستماع للنزاعات، والنظر فيها وحلّها[35] ، فضلا عن التدريس و التوسع في حلق التعليم بالزاوية التي أنشأها بقصر بوعلي تعبيرا عن استقلاله عن الزوايا الأخرى بالإقليم و الانفراد بتعزيز خصوصياتها و استيعاب طلبته ومريديه من الإقليم وخارجه يوفر لهم الإقامة، والتعليم، والضيافة لتأمين وجودهم حتى غدت الزاوية مركزا

مشهورا يلعب أدوارا متنوعة بما فيها الدور السياسي والعسكري[36] الذي تقتضيه الثورة الدعوية الإصلاحية. ولعل السلطة الوطاسية قد تفاعلت مع الفتوى من خلال قراءة البعد السياسي المرتبط بها، و بالتالي سعت من باب الاحتراز لأثرها للانتقاص من صاحبها ومن بعدها الدعوي الإصلاحي متهمة إياه "بالتطلع، و الظهور و الرغبة في الملك"[37] ثم طوّرت موقفها المعارض بكيفية أشدّ وقعا ووضوحا في حملة دعائية مضادة و ربما تورط مباشر في إفشال التجربة السياسية المغيلية كان المتوقع أن تحمل تهديدا كبيرا في حالة نجاحها[38]. وانسجاما مع هذا الموقف السياسي للسلطة الوطاسية اتخذ الكثير من فقهائها موقفاً مناهضا للمغيلي رغم الجهود التي بذلها و تحمّله مشقة الرحلة إلى فاس لشرح وجهة نظره، ومع ذلك عارضوه و تحركوا لدى السلطان الوطاسي في وشاية سياسية تدّعي رغبة الظهور والملك من الشيخ بدلا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا حدث الاصطفاف بين الوطاسيين وفقهائهم على أنه أثر سياسي مباشر ذو صلة بفتوى المغيلي عجز عن إفشاله أو اختراقه رغم مسعاه الحثيث بالمراسلة أو الحضور الشخصي لإبانة الموقف ورفع اللبس[39]. وفي موقف مغاير قد يحمل معنى سياسيا لا سيما وأنه شجع المغيلي على تعميق دعوته الدينية الإصلاحية لتأخذ بعدا سياسيا ترجمه في الإسراع متشجعا إلى الإعلان عن ميلاد نواة لكيان سياسي تمثل في إنشاء الإمارة المغيلية وتأطيرها للمشروع الإصلاحي وإعلان الثورة على السلوكات اليهودية، وقد أيّد هذا الموقف فقهاء كثيرون أمثال الفقيه السنوسي وابراهيم الفجيجي، والتنسي وغيرهم، واجمعوا على الامتناع عن الإقرار بالكنائس في الديار الإسلامية[40]. وارتباطا بأثر الفتوى توسعت الثورة في أهدافها السياسية تؤطرها الإمارة المغيلية مستهدفة الغلائف أصحاب النفوذ والسلطة في إدارة شؤون الإقليم، مما اقتضى ردود أفعالهم في مسعى لحماية مصالحهم بالكيد للثورة، في اصطفاف واضح لجبهة اليهود ضد الكيان السياسي الجديد الذي صار يشكل مصدر تهديد لاسيما وأنه قد تمكن من الاستقلال بسيادة قراره من دون الخضوع

لسلطة خارجية. ولكن بتكلفة باهظة نالت مقتل الأمير محمد المغيلي على إثر خروج والده في مهمة دعوية لتعزيز عمق الإمارة ناحية الجبهة الجنوبية[41] .

4. 1. 2: الأثر الاقتصادي لفتوى نازلة اليهود: بمقاربة نصية ومن خلال مضمون الفصول الثلاثة لفتوى المغيلي، بشأن نازلة اليهود في توات نسجّل حضورا رحب المساحة للجانب الاقتصادي، وهو حضور يترجم حيوية إعادة النظر في وضع أهل الذّمة وعلاقتهم بالمجتمع الإسلامي الذي يكوّنون واحدا من مكوّناته عموما، وفي توات خصوصا من الناحية المادية، العامل الأساس في منحهم نفوذا وتوغلا ضمن مفاصل القصور الصحراوية، ولاشك أن هذه الدعوة الصريحة التصحيحية سيكون لها أثرها وصداها محليا وإقليميا لاسيما أنها جاءت في إطار الشرع الإسلامي، في وقت تسلّط فيه اليهود اقتصاديا وتجاريا[42]، وقد اشتكاهم الناس لتصويب سلوكهم وفق خريطة طريق يرسم المغيلي معالمها، ويدعوا المسلمين لسلكوها وجوبا توجبه الشريعة الإسلامية، وما يرافق ذلك من أثر اقتصادي مباشر يعلي الشأن الإسلامي، وفق قواعد الشريعة الناظمة ذات الصلة، ويمكن التماس بعض جوانبها في فصول فتوى النازلة على النحو التالي:

-**الفصل الأول**: فيما يجب على المسلمين في اجتناب الكفار، واضح من خلال العنوان توجيه صريح لأولويات التغيير، ابتداء بالتغيير الذاتي انسجاما مع قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[43]، ويحصل التغيير الذاتي أولا من خلال التقيد بما يجب على المسلمين وولائهم لبعضهم البعض، واجتناب الولاء للكفار ذلك أن مسالة القرب من الكافر لا يقبلها سوى من لادين ولا عقل ولا مروءة له ، كما حذر من مأكل اليهود والتعامل معهم كونهم أصحاب مكر وخديعة وجانبهم غير مأمون[44]. ومن خلال هذا المضمون المتعلق بما يجب على المسلمين من تجنب الكفار أهل الذّمة وعدم موالاتهم ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾[45]. وكذا تجنب التعامل معهم والتقيد بهذه الالتزامات من

شأنها أن تعرض اليهود لحصار ومقاطعة اقتصادية تعمق فقدهم لاحتكار التجارة، وتضع حدا لجرأتهم في سبيل إنهاء طغيانهم.

– **الفصل الثاني**: فيما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار ،وقد ضمّنه الشيخ المفتي ما يلزم أهل الذمة من دفع الجزية، مع بيان توضيحها ،وفرضها ودفعها التزاما[46] بقوله تعالى:﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[47] وفي تحصيل الجزية من شأنه ضمان مورد مالي ثابت ودائم لبيت مال المسلمين بإضافة مادية مقابل حقوق مضمونة لأهل الذمّة.

– **الفصل الثالث**: فيما عليه يهود هذا الزمان في سائر الأوطان من الجرأة والطغيان، والتمرد على الأحكام الشرعية بتوليه أرباب الشوكة وخدمة السلطان. يتضمن هذا الفصل انطلاقا من عنوانه توصيفا لوضع يهود توات وتبجوراين، تافيلالت، ودرعة، وخارجها في كثير من الأوطان بإفريقية وتلمسان وهو توصيف يُقرُّ الجرأة والطغيان والتمرُّد على الأحكام مما يوفر مبررا كافيا لنقض العهد الذي خرجوا منه، يقتضي خروجا مضادا، وبالتالي التضييق عليهم وملاحقتهم ومحاربتهم حربا أعلنها بنفسه قائلا " **فوالذي نفسي بيده لقتل يهودي واحد منهم أعظم من غزوة في أرض المشركين**"[48]. ودعا فضلا عن محاربتهم لمصادرة أموالهم وسبي أولادهم، ونسائهم حتى يذعنوا للأحكام الشرعية، ولهذا الموقف أكيد أثره المباشر بعد تجسيده في إعلان الثورة عليهم، مما سيفوّت عليهم تأمين ممارسة تجارتهم وتامين وجودهم، وقد يضطرهم ذلك لهجرة يرافقها تعطيل وتذبذب في العديد من المصالح العامة التجارية وصنائع الحرف، ويتضاعف إفراغ المنطقة اجتماعيا واقتصاديا، وتبعا لذلك تضطرب الحياة الاقتصادية بشكل عام. لاسيما على مستوى الأنشطة التي كانوا يمارسونها والمنتشرة عبر الأسواق مثل صناعة الحلي والفضة والصابون[49]، وحركة القوافل التجارية خارج هذه الأسواق عبر طرق عديدة متنوعة الاتجاهات شمالا وجنوبا، وقد تمظهر هذا الاضطراب في شكل أزمة

اقتصادية في المنطقة صاحَبَها تراجع مكانة توات التجارية، التي ظل ينشطها بشكل رئيس اليهود وبالموازاة تعطلت حركة تجارة الذهب الواردة من السودان الغربي باتجاه أوروبا عبر موانئ تلمسان[50] ،وتم تغييرها طلبا لأمنها عبر طرق محوّلة خارج توات مرورا بتمبكتو —عذامس[51]. وللتخفيف من حدّة تبعات الأزمة الاقتصادية، وكذا ضمان أسباب نجاح جهوده الدعوية الإصلاحية، بنى المغيلي سوقاً كبيراً لغرض تجاري على أن ينشط وفقا للمبادئ والأسس الإسلامية، وقد عرف توسعا وحركية تجارية أصبح بفضلها قطبا اقتصاديا بالمنطقة موازياً ومنافساً لنشاط اليهود، حقق نجاحا مكّنه من تخفيف السيطرة اليهودية على اقتصاد الإقليم[52]. وهو تجربة يمكن قراءتها من زاوية التنويع في آليات ومظاهر الصراع مع اليهود لتأخذ بذلك بعداً حضارياً شاملاً.

4. 1. 3: الأثر الاجتماعي لفتوى نازلة اليهود: وضعت فتوى المغيلي بشأن نازلة توات تشريعا إسلاميا ثريا، تجسيده من شأنه أن يحدث أثراً اجتماعياً يمس فئات اجتماعية عديدة:

- **فئة اليهود:** مثّل اليهود الفئة الرئيسية المعنية وبصورة مباشرة في فتوى المغيلي، حيث أثار بشأنهم في فتواه مسائل عديدة، وأجاب عليها في رسالته إلى كل مسلم ومسلمة، وفيما يلزم أهل الذّمة من الجزية والصغار، وفي مناظراته، ومراسلاته مع علماء عصره في فاس وتلمسان[53]. وتبعا لهذه الإجابة جاءت جل التدابير المتخذة إجرائيا بشأنهم لتُحدث أثراً اجتماعيا لعل أبرزه المتنوع يتمثل:

❖ **إلغاء عقد ذمة يهود توات وحل دمائهم:** من منظور المغيلي وفّر يهود توات مبرّراً كافيا لهذا الإجراء بتجاوزهم على الحدود الشرعية الناظمة لوضعهم داخل المجتمع الإسلامي، فرفعوا بذلك الذمة المعطاة لهم "يهود توات لا ذمّة لهم وهم كغيرهم من يهود بلاد المغرب" وجاءت الثورة على وضعهم الاجتماعي للمرة الأولى في سنة

1477م"فوالذي نفسي بيده لقتل يهودي واحد منهم أعظم من غزوة في أرض المشركين"[54].

❖ **استهداف الملكية الاجتماعية والاقتصادية ليهود إقليم توات:** ترتبط الوضعية الاجتماعية بمستوى الملكية، لذلك يأتي إضعاف الوضعية الاجتماعية لليهود مرورا باستهداف الأملاك والبيّع التي استحدثوها، وهو إجراء توسّع مرتبطاً بفتوى المغيلي، و مؤيديه من العلماء الموالين لرأيه أمثال التنسي والسنوسي .

❖ **إجلاء اليهود عن الإقليم:** ان تحلل مسلمي المجتمع التواتي من القواعد الناظمة للتعامل مع أهل الذمة (اليهود) قد ساهم في رفع الحماية عنهم، بالإضافة إلى استهداف بيّعهم وأملاكهم، مما عزّز الدفع باتجاه إجلائهم عن إقليم توات ولاسيما من تمنطيط التي غدا فيها اليهود لا يأمنون على بقائهم ولا على أرواحهم وأملاكهم مما سهّل إجلاءهم تحت وقع جهود المغيلي التي تحث على إخراجهم واستحضار عظيم عداوتهم[55].

❖ **هجره بعض اليهود خارج إقليم توات:** وان كانت طوعية إلا أنها كانت من جانب آخر تمثل نسخة أخرى مكمّلة للإجلاء، اضطر فيها بعضهم لهذا الخيار تأميناً لأنفسهم وأملاكهم يدفعهم الضغط الداخلي، فهجروا الإقليم باتجاهات عديدة[56]. وبالإضافة إلى هذا الإفراغ الاجتماعي للإقليم من اليهود كرها، أو طوعًا، لا يستبعد أن يكون من بقي منهم داخل الإقليم قد لجأ طلبًا للحماية إلى الانسحاب من الواجهة العامة والانزواء في أحياء اجتماعية مغلقة، أو الانزواء ضمن حاضنة اجتماعية تؤمنها الغلائف وشيوخ القصور.

- **فئة الغلائف:** تمثل هذه الفئة الحاضنة الأمنية و الاجتماعية من المسلمين لفائدة اليهود في إطار تزاوج المصالح، مستفيدة من الدعم المادي الذي تحصل عليه لقاء خدماتها، وهي الجهود التي أنكر عليها المغيلي هذا الوضع، وأجاب بشأنها في الفصل الأول من

رسالته " فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار"، وهي إجابة بلا شك تولد ضغطاً باتجاه تعديل مواقفها، إضافة إلى ضغط المغيلي نفسه في حربه على هذه الفئة مما يفقدها مصدرًا ماليا وخدماتياً يهوديًا، الأمر الذي يضعف سلطتها ومكانتها الاجتماعية التي ظلت تضمنها الأعراف المحلية[57].

- **فئة الصناع وصغار الحرفيين**: ظل توالد وازدهار أنشطة الصنّاع وصغار الحرفيين مرتبطا بحيوية التجارة، وحركيتها، متمظهرًا في كثرة حوانيتهم وورشهم متنوعة الاختصاص لصاغة، وصياغة، نحاس، وحدادة، وما إلى ذلك، غير أن حالة الاضطراب، المتزامن مع ثورة المغيلي وتعطل حركة القوافل التجارية قد هدد بكساد نشاطهم وتراجع الإقبال عن منتوجهم، وتبعا لذلك تراجع دخلهم، وسحب معه تراجع مكانتهم الاجتماعية، ولا يستبعد بعد فقدان بعضهم لنشاطه الذي لم يعد مربحًا كما كان[58].

فئة المرتبطين بالسوق الاقتصادية التي أحدثها المغيلي: لعله من الصواب ترجيح زيادة تعداد المنخرطين من مسلمي ساكنة توات في السوق التي استحدثها المغيلي بديلا لاحتكار اليهود وتسلطهم[59] جاء مرتبطا بهذا الإجراء العملي في إقامة السوق وحثهم على الإقبال عليها، كما جاء متأثراً بفتواه لاسيما في شقّها المتعلق بما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، وذلك يعني فك الارتباط الاجتماعي والاقتصادي بين المسلمين و اليهود في الإقليم، بعدما كانوا يتشاركون التجارة وتسيير قوافلها[60]، ويتبادلون الاستعمال في قطاعات خدمية تعبيراً عن تقارب اجتماعي، وجد خدمة يهودية في أعمال منزلية إسلامية ، كما أوجد خدمة إسلامية في الإعانة على بناء البيّع اليهودية[61]. وهكذا تكون فتوى المغيلي قدا أحدثت أثراً اجتماعيًا مباشراً عمّق الفصل وفك الارتباط بين الطرفين من أتباع الديانتين المختلفتين الإسلامية واليهودية. ومن خلال هذا تظهر الفئات المتضررة متأثرة بصدى الفتوى أقرب إلى تحالف يعززه إشراكها في خصومة المغيلي، لذلك انخرطت في تحالفات ضاعفت متاعبه وساهمت في إجهاض تجربته.

4. 2: ردود الفعل بشأن الفتوى فتوى المغيلي

4. 2. 1: ردود الفعل المؤيدة وأثرها على مجريات الأحداث: حظيت فتوى المغيلي بتأييد واسع وسط الفقهاء والهيئآت الفقهية، لاسيما فيما يتعلق بالشق المرتبط بهدم كنائس اليهود، مما وفّر له دفعاً، عزّز موقفه، وشجعه على الحديث عنه مشيدًا بذكره أمام العامة، مدّعيا الإجماع كما ذكر العصنوني[62]، واتسعت قائمة مؤيديه لتشمل الكثير من الفقهاء مثل الفقيه أبو القاسم بن محمد بن حجو الحسّاني في ريف المغرب، وعبد الله بن علي بن طاهر الحسني في تافيلات بالمغرب أيضًا[63]، والإمام يوسف السنوسي، وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي، منطلقين من اعتبار توات وغيرها من قصور الصحراء كلها ديارا إسلامية ولا تسامح فيها بشأن بناء البيّع اليهودية، إظهارا لعلوّ شأن المسلمين دون غيرهم، وكبحًا لسيطرة اليهود على أسباب العمل المربحة التي استأثروا بها، ومن خلالها وسّعوا نفوذهم متجاوزين القواعد الناظمة لإطار وجودهم كأهل ذمّة داخل المجتمع الإسلامي[64]. ولا شك أن هذا التأييد الواسع من الفقهاء، سيرافقه احتضان اجتماعي يتّسع تبعا لاتساع التأييد، فيخلق عمقًا اجتماعيًا وسط الأنصار مثلما فعلت قبيلة البرامكة، وأولاد علي بن موسى وغيرهما، تعبيراً عن الانتصار للفتوى ومن ورائها الفقهاء المفتين، وربما أيضا رغبة في تغيير الوضع الذي ينال امتعاضا كبيرًا من سيطرة اليهود[65]. كما حظيت فتوى المغيلي بقبول واستجابة عبر الصحراء في بلاد السودان متجلية في التضييق على اليهود، وحصر مجالات التعامل معهم، ومنعهم من الإقامة في بعض الجهات[66]، وربما للأسباب نفسها التي انتصر لها الفقهاء وحاضنتهم الاجتماعية في إقليم توات، حيث الأثر نفسه ناتج عن الفتوى والردود المؤيدة التي وفرّت مبررًا لحشد واسع تطلع مع ثورة المغيلي لتصحيح الوضع[67] .

4. 2.2: ردود الفعل المناهضة وأثرها على مجريات الأحداث: اصطدمت فتوى المغيلي بشأن يهود توات بارتدادات عكسية أنكرت موقفه، وقد تصدّرها الفقيه القاضي بالإقليم العصنوني، لاسيما في شقها المتصل بوضع الكنائس القائمة المنجزة وتلك التي في

طور الانجاز حيث قال: " قد شغّب علينا فيها المغيلي وولده سيدي عبد الجبّار تشغيبا كاد أن يوقع في فتنة"[68] وفي مراسلته لفقهاء تلمسان و فاس وضّح العصنوني موقفه بعد تأمّل كما يذكر من دون إقرار ما أجازه المغيلي، مدعما رأيه بما اختطه المسلمون في صدر الإسلام، وفيهم علماء لا يسكتون على باطل شاهدوا الكنائس ولم ينكروها على أهل الذمة، مع أنهم أنكروا أشياء أخرى عليهم وعلى الغلائف، بل دافع العصنوني على يهود توات ناكراً لما لحقهم من الفقيه الفجيجي من أوصاف شائنة ليسوا عليها، بقدر ما عهد عليهم من التزام بالإقامة في دورهم الخاصة بهم، حيث كنيسهم في دُورهم لا تلاصق دار مسلم[69]. وعلى هذا الرأي استقر فقهاء فاس باعتبار هدم الكنائس لا يجوز بمقتضى الشريعة المحمدية، والتشغيب انما يحصل من عدم التحقيق، لذلك لما التحق المغيلي بفاس للدفاع عن موقفه وتوضيح و جهة نظره تسبقه شهرة فتواه لم يفلح في إقناع فقهاء فاس وتلمسان، و ربمّا توسّعوا في قراءة مسعاه على أنّه" تطلع للظهور والرغبة في الملك"[70] انسجاما مع موقف السلطة السياسية الوطاسية، وقفل عائداً إلى توات عازما على إعلان الثورة على اليهود مستأنسا بما ناله من تأييد من فقهاء أقروا مواقفه. وفي تطور لاحق لم يكتف قاضي تمنطيط أبو عبد الله العصنوني وشيخ الجماعة عمر بن عبد الرحمن بالإنكار على المغيلي موقفه، بل لعبا دورا سهّل على اليهود رجوعهم إلى توات بعد إجلائهم، واصبغوا على موقفهم لباس الفتوى التي استصدرها العصنوني، استثماراً للسياق العام، سياق الوضع الاقتصادي المتدهور[71].

يظهر من خلاله أن المغيلي قد بدا مكافحاً، حقق نجاحاً في مواطن عدّة؛ و لكنه في النهاية وتحت تأثير تعدد الجبهات المفتوحة قد أجهضت تجربته سياساً، بينما بقيت امتداداتها تتفاعل حضارياً.

5– أهمية فتوى النازلة في الكتابة التاريخية:

• **فتوى نازلة توات نافدة مفتوحة على تاريخ المنطقة:** المعطيات المعرفية التاريخية التي تمّ رصدها ضمن عناصر المقال، تؤكد الأهمية التاريخية المتنوعة لفتوى نازلة اليهود في توات

باعتبارها نافذة من خلالها يمكن قراءة بعض صفحات تاريخ المنطقة وتظهر هذه الأهمية على مستويات عديدة منها:

• **على مستوى المخطوط**: باعتباره أداة من أدوات بناء المعرفة التاريخية من ضمن الموروث الأرشيفي الفقهي الذي يحتاج لقواعد استثماره، وبالتالي تسفيره من الحقل الديني الى ميدان الحقل التاريخي.

• **على مستوى مضمون المخطوط**: يحوز المخطوط معطيات تاريخية ترسم صورة حيّة لحركية مجتمع توات بتفاصيلها اليومية، وتنوع مجالاتها تبعا لتنوع انشغالات حركة ساكنة الإقليم، شاملة الميادين الحضارية عموماً مثلما تم الوقوف عليه من خلال التعريف بالمخطوط متضمناً فصولاً ثلاثة لكل منها مضمون ذو صلة بموضوع من مواضيع الفتوى التي شملت تنظيم علاقة المسلمين بأهل الذمة، والجزية المفروضة، وكذا حال اليهود وجرأتهم على التحكم في المشهد اليومي لتوات[72].

• **على مستوى أثر الفتوى وردود الفعل المرتبطة بها**: أحدثت الفتوى أثراً عاماً مسّ الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ساهم في إعادة تشكيلها صياغة معالمها، مما رافقها صدى واسع وسجال فقهي عبّر عن الجانب الحي في مجتمع الإقليم بتفاعلاته وامتداداتها الزمانية والمكانية[73].

6- فتوى المغيلي موضوع حوار بين دواعي الجهود الإصلاحية وتطلعات التوافق:

اقتفاء أثر المغيلي يكشف عن جهود دعوية - إصلاحية في بعدها المحلي بإقليم توات، ومن بعد ذلك في امتدادها الإفريقي بمنطقة الساحل الصحراوي، وتأتي هذه الجهود تعبيراً صريحًا عن مشروع حضاري متكامل بُكْرَتُه تواتية، حيث دخل الإقليم من خلال أولاد سعيد بتيميمون، وعاش أزمة عصره، وتجنّد للخوص فيها والبحث عن بدائل علاجية—إصلاحية، ضمّنها في فتواه المنسوبة إليه بشأن يهود توات، وكشف بها عن انشغاله بأسباب النهوض المجتمعي انطلاقاً من مبدأ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فكان كتابه كما ذكر "هذا

كتاب من عبد ربه تعالى محمد بن عبد الكريم من محمد المغيلي التلمساني"، إلى كل مسلم ومسلمة ليأخذ علما بما أفتى به بعدما استفتي من أحد الأخيار بشأن ما يجب على المسلمين في علاقتهم بأهل الذمة، وما يجب على هؤلاء من التزام الجزية، وما أنكره عليهم أيضا من تعدٍّ على الشريعة الإسلامية وتمرّد على الأحكام[74]. ولعله بمضمون فتواه يشير لدواعي إصلاح الوضع الداخلي بالإقليم وفق ما يقتضيه واجبه الشرعي من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. وعلى اثر صدور الفتوى، دخل فقهاء الحواضر العلمية الإسلامية سجالاً فقهيا رافقه اصطفاف في المواقف بشأنها معبّراً عن ردود فعل مؤيدة وأخرى معارضة انطلاقا من اجتهادات فقهية، ساهمت بدورها في إثراء الحياة الدينية والفكرية، وعبّرت من جهة أخرى عن حيوية ثقافية عكست ارتباط الفقه بقضايا عصره، كما عكست دوراً اجتهاديًا من فقهاء الأمة لا يعدم الرغبة في مسعى البحث عن أسباب السكينة واستقرار المجتمع رغم سجال المواقف بما فيها المعارضة الساعية لتوليف المجتمع الإسلامي الإطار العام ومنه أهل الذمة دفاعا عنهم على قدر التزامهم بالضوابط الناظمة لعلاقتهم مع المجتمع الإسلامي[75].

إذا كان العمل الدعوي الإصلاحي للمغيلي قد حظي بأولوية داخلية مبكرة، فإنها سرعان ما تعمقت بأولوية خارجية مستهدفة المحيط الإفريقي، حيث ظهر المغيلي متنقلا بين أمراء الساحل الصحراوي داعيًا مرشدًا، يقود ثورة إصلاحية انطلقت من الإقليم وامتدت خارجه شمالاً وجنوباً نحو السودان عامة، يرتحل ويكتب ويُكاتب مخلفا ثروة تراثية لا تزال تكتنزها خزائن إفريقية عديدة، تؤسس لمرجعية حضارية وطنية في بعدها القاري، حيث امتدّ صداها إلى الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا واضعًا لأسس حركة حوار فكري وإصلاحي بالمنطقة[76].

خاتمة: من خلال المساهمة البحثية يمكن انهاؤها بمجموعة من استنتاجات تتلخص فيما يلي:

- ✓ نازلة اليهود في توات من المصادر الهامة في كتابة تاريخ المنطقة بكل جوانبها، وكذا بكل حيثيات التغيير فيها، وتوزيع التوازنات والتقاطعات الاجتماعية.
- ✓ نازلة توات إعادة اعتبار لقواعد الشريعة الإسلامية الناظمة لعلاقة المجتمع الإسلامي بأهل الذمة، ولا تغلق أبواب التمتع بهذه القواعد في حالة الالتزام بها.
- ✓ معالجة المغيلي لنازلة اليهود في توات وإن كان ظاهرها دينيا، إلا أنها تأتي تعبيرا عن مشروع حضاري في بعده المحلي وامتداداته الإفريقي.

الهوامش:

[1]- خير الدين شترة: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في توات والسودان الغربي، ج2، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تلمسان، الجزائر، 2011م، ص341.

[2]- يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1995، ص143.

[3]- مبروك مقدم: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية خلال (القرن التاسع عشر للهجرة الخامس عشر ميلادي)، ط1، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ص27.

[4]- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 155، 156.

[5]- المرجع نفسه، ص 155.

[6]- مبروك مقدم : المرجع السابق، ص 27.

[7]- أحمد بن يحي الونشريسي: النوازل الجامعة أو النوازل الجامع، تحقيق شريف المرسي، ط، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2011م، ص 20

[8]- احمد بابا التنبكتي (ت 963هـ/ 1036م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهدامي، ط1، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1982م. ص 332.

[9]- محمد حوتية: توات والازواد خلال (القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة /الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي) دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج1، دار الكتاب العربي: الجزائر 2007م، ص28.

[10]-عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661-1663، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، مج1، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006م، ص80، لمزيد الاطلاع ينظر، محمد عبد الكريم: الشبكة العمرانية لإقليم توات لولاية أدرار، آليات التنظيم والأداء المجاني، رسالة ماجستير، جامعة وهران-2-، الجزائر،2006م،ص28.

[11]-حسين زيغمي: ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وما يلزم أهل الذّمة من الجزية والصغار للشيخ المغيلي (909هـ)، دراسة، وتحقيق وتعليق، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية قسم الشريعة والقانون، تخصص فقه مقارن، جامعة الجزائر1 ، 2012-2013م، ص 37.

[12]- خير الدين شترة: المرجع السابق، ج1، ص146.

[13]-نور الدين حاج أحمد: المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم أصول الدين، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2010-2011م، ص 36.

[14]- عبد الله حاج أحمد: الإمارة المغيلية بتوات "التأسيس والسقوط" 882-889هـ، مجلة الحوار الفكري، جامعة ادرار، الجزائر، ع 16 ، 2018م، ص ص 188، 189.

[15]- عبد الله حاج أحمد: المرجع السابق، ص 190.

[16]- ياسين شابي: اقليم توات خلال القران(9هـ/15م) و موقف الشيخ المغيلي التلمساني من يهودها، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات مج8، ع1، 2017، ص 95.

[17]- نورالدين بوكردود: نازلة يهود توات للشيخ المغيلي التلمساني بين الصناعة الفقهية المعتمدة و أوجه الإفادة المعاصرة، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة، الجزائر، مج 33 ع 02، 2019، ص 426 .

[18]- محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني الجزائري أبو القاسم بن مرزوق بن عبد الجليل بن عظوم القيرواني: رسالتان في أهل الذمة الرسالة الأولى مصباح الأرواح في أصول الفلاح للشيخ عبد الكريم المغيلي ت(909 هـ) الرسالة الثانية الإعلام بما أغفله الأعوام لأبي القاسم ابن عظوم كان حيا (1009 هـ)، تحقيق عبد المجيد الخيالي، ط1، منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، 2001 ، ص 47.

[19]- حسين زيغمي: المرجع السابق ص 90.

[20]- نور الدين حاج احمد: المرجع السابق، ص46.

[21]- عبد الرحمن بعثمان: حملة المغيلي على يهود توات و أثرها على الواقع الحرفي في المنطقة، مجلة البحوث الاجتماعية

والتاريخية،، جامعة بشار، الجزائر، ع 4، ص ص 130، 131.

[22]- محمد بن عسكر الشفشاوني: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجتي، دار المغرب للتأليف والنشر بالرباط، (من المقدمة)، ص 130.

[23]- محمد بن عبد التكريم المغيلي: تقييد نفيس فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار، وما عليه يهود الزمان من الجرأة والطغيان، رقم 193، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، 2023، ص 1.

[24]- تباين تسميات الفتوى يظهر في دراسات وتحقيقات منها، ينظر، عبد الكريم المغيلي وآخرون: رسالتان في أهل الذمة، المصدر السابق، ص 09. ينظر ايضا، نورالدين بوكردود : نازلة يهود توات للشيخ المغيلي التلمساني بين الصناعة الفقهية المعتمدة وأوجه الافادة المعاصرة، مجلة جامعة الامير عبد القادر، مج33، ع02، 2019، الجزائر، ص 426.

[25]- عبد الرحمن بعثمان: المرجع السابق، ص 129، ينظر ايضا: شيباني ياسين: المرجع السابق، ص 189، حسين زيغمي: المرجع السابق، ص 89.

[26]- محمد عبد الكريم المغيلي: المصدر السابق، ص 2.

[27]- المصدر نفسه، ص 1.

[28]-المصدر نفسه، ص ص 2، 3، 4، 5، 6.

[29]- المصدر نفسه، 5، 6، 7.

[30]- المصدر نفسه، ص ص 11، 12، 13، 14.

[31]- حسين زيغمي: المرجع السابق، ص 11.

[32]-المرجع نفسه : ص ص 96، 98.

[33]- ياسين شايبي: المرجع السابق، ص 20.

[34]- عبد الله حاج أحمد: الإمارة المغيلية بتوات التأسيس والسقوط 882-889 هـ، مجلة الحوار الفكري، جامعة ادرار، الجزائر ع16 ، 2018م، ص188.

[35]- نور الدين حاج احمد: المرجع السابق، ص38.

[36]-المرجع نفسه: ص 47.

[37]- عبد الله حاج أحمد: المرجع السابق، ص193.

[38]- المرجع نفسه، ص 202.

[39]- نورالدين حاج أحمد: المرجع السابق، ص 56.

[40]- عبد الرحمن بعثمان: المرجع السابق، ص ص 131، 132.

[41]- عبد الله حاج أحمد: المرجع السابق، ص ص 196، 201.

[42]- المرجع نفسه، ص 190.

[43]- سورة الرعد: الآية11.

[44]- فاطمة فيلالي: منهج وأسلوب العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في التأليف من خلال كتابه مصباح الأرواح في أصول الفلاح، مجلة الاستيعاب ، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر،، ع02، ص 166.

[45]- سورة آل عمران: الآية 28.

[46]- فاطمة فيلالي: المرجع السابق، ص 167.

[47]- سورة التوبة : الآية 29 .

[48]- فاطمة فيلالي: المرجع السابق ، ص 167.

[49]- عبد الرحمن بعثمان: المرجع السابق، ص 133.

[50]- ياسين شايبي: المرجع السابق، ص ص 100، 101.

[51]- عبد الرحمن بعثمان: المرجع السابق، ص 134.

[52]- نورالدين حاج احمد: المرجع السابق، ص 93.

[53]- ياسين شبايبي: المرجع السابق، ص 181.

[54]- فاطمة فيلالي: المرجع السابق، ص 167.

[55]- ياسين شبايبي: المرجع السابق، ص ص 184، 185.

[56]- المرجع نفسه، ص 184.

[57]- عبد الله حاج احمد : المرجع السابق، ص 196.

[58]- عبد الرحمان بعثمان: المرجع السابق، ص ص 133، 134.

[59]- حاج احمد نورالدين: المرجع السابق، ص 39.

[60]- عبد الرحمان بعثمان: المرجع السابق، ص 131.

[61]- محمد بن عبد الكريم المغيلي وآخرون: المصدر السابق، ص30.

[62]- احمد بن يحي الونشريسي (ت 914هـ): المعيار المعرّب والجامع المغرّب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، المغرب، 1401هـ-1981م، ص 216.

[63]- ياسين شايبي: المرجع السابق، ص 189.

[64]- عبد الرحمن بعثمان: المرجع السابق، ص ص 131، 132.

[65]-المرجع نفسه: ص 133.

[66]- ياسين شايبي: المرجع السابق، ص 189.

[67]- عبد الرحمن بعثمان: المرجع السابق، ص 132.

[68]- احمد بن يحي الونشريسي: المصدر السابق، ج2، ص 215.

[69]- المصدر نفسه، ص 218.

[70]- عبد الله حاج احمد: المرجع السابق، ص 193.

[71]- عبد القادر المليق: دور محمد بن عبد الكريم المغيلي في مقاومة يهود توات، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، مج3، ع6، 2012م، ص 103.

[72]- عبد الكريم المغيلي : المصدر السابق، ص ص 6، 9، 14.

[73]- نور الدين حاج أحمد : المرجع السابق ، ص 72.

[74]- عبد الكريم المغيلي : المصدر السابق، ص ص 1، 2، 3.

[75]- ابو العباس احمد بن يحي الونشريسي: المصدر السابق، ص 215.

[76]- احمد جعفري: حوار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا، مجلة الفضاء المغاربي ، جامعة ادرار، الجزائر،، مج 04، ع01، ص 06.

الهجوم على مركز الحوران خلال الثورة التحريرية

The importance of historical writing through the incident of the jewes in Tuwat by Abd al-karim al-Mughili.

خوجة أمال
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر
amalkhwjt@gmail.com

بلخير بية *
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/06/29	2024/12/22	2025/01/31

الملخص:

يعتبر موضوع الهجوم على مركز الحوران من المواضيع المحلية المهمة في تاريخ الثورة باعتباره يسلط الضوء على واحدة من أهم وأصعب المعارك في تاريخ النضال الجزائري، فمن جهة يعرفنا على الاستراتيجية العسكرية التي تبنتها في مواجهة الاستعمار الفرنسي، وهو ما يدل على التطور الفكري لقادة الثورة بتطور الثورة في مواجهة الألة العسكرية الفرنسية، ومن جهة أخرى فإن دراسة التاريخ المحلي مهم باعتباره يمثل لبنة أساسية في بناء التاريخ الوطني، من خلال الكشف عن ملابسات وحيثيات الهجوم على مركز الحوران ، باستغلال شهادة المجاهدين والفاعلين في الحدث.

الكلمات المفتاحية: مركز الحوران؛ الهجوم؛ الولاية الثالثة التاريخية؛ التسليح؛ الاستراتيجية العسكرية.

Abstract:

The topic of the attack on the Al-Houran center is considered one of the important local topics in the history of the revolution, as it sheds light on one of the most important and difficult battles in the history of the Algerian struggle. On the one hand, it introduces us to the military strategy that it adopted in the face of French colonialism, which indicates the intellectual development of the leaders of the revolution with the development of the

* المؤلف المرسل

revolution. In the face of the French military machine, on the other hand, studying local history is important as it represents a basic building block in building national history, by revealing the circumstances and circumstances of the attack on the Al-Houran Center, by exploiting the testimony of the Mujahideen and those responsible for the event.

Key words: Al-Houran Center, attack, historicalthird state, armament, militarystrategy.

مقدمة:

من بين المعارك التي خاضها الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي أثناء الثورة التحريرية معركة التسليح، باعتباره أهم آليات العمل الثوري الميداني، والتي كانت من أكبر المعارك وأخطر الرهانات لتفعيل ديناميكية الجانب العسكري وضمان ديمومته واستمراريته، ولأن الاستعمار الفرنسي يعرف أهمية التسليح في العمل الثوري فقد سد كل المنافذ على المجاهدين بتطويق الحدود الشرقية والغربية لمنع دخول السلاح، إلا أن قيادة الثورة حاولت تذليل كافة الصعوبات المتعلقة بمتطلبات العمل العسكري.

فبعد أن كانت مصادر التسليح خارجية أصبحت داخلية بفضل حنكة وحكمة قيادة الثورة، من خلال اللجوء إلى أساليب أخرى من أجل التسليح والتزود بالذخيرة من بينها الهجوم على ثكنات العدو، وفي هذا الصدد جاء موضوع دراستنا بعنوان الهجوم على مركز الحوران 04 فيفري 1958م بالمنطقة الثانية الناحية الأولى القسم الثالث بالولاية التاريخية الثالثة، كأحد الاستراتيجيات العسكرية من أجل التزود بالسلاح.

تتجلى أهمية الموضوع في التعرف على تفاصيل وملابسات وحيثيات الهجوم على المركز، ومعرفة الصعوبات التي تلاقها المجاهدون من أجل الحصول على السلاح، وذلك بالاعتماد بالدرجة الأولى على الذاكرة الشفوية لمجاهدي المنطقة والفاعلين في الحدث، بالإضافة إلى المذكرات الشخصية في محاولة لتخليد مواقف وبطولات صنعها الرجال والنساء في هذه المنطقة.

يطرح الموضوع المحلي إشكالية محدودة الزمان والمكان لذلك فان موضوع التاريخ المحلي هو موضع محفوف بالمخاطر والصعوبات، يتطلب الدقة في تحديد العناصر الأساسية للدراسة، خاصة وأن الموضوع يعتمد بشكل أساسي على الشهادات الحية، ومن هنا فإن اشكاليتنا تتمحور حول الهجوم على مركز الحوران 04 فيفري 1958م كاستراتيجية للتسليح، وتداعياته في تفعيل الكفاح المسلح بالناحية.

فما هي ملابسات وحثيات الهجوم على مركز الحوران 04 فيفري 1958م؟

وماهي خيارات الحصول على الأسلحة التي كانت متاحة أمام المجاهدين؟ وكيف يتم نقلها إلى الجزائر؟ كيف تم التخطيط للهجوم على مركز الحوران؟ وماهي النتائج التي حققها؟ وما هي تداعيات الهجوم على مركز الحوران سواء على مجاهدي الولاية الثالثة؟ أو على الاستعمار الفرنسي؟ ما هي الاضافات التي حققها الهجوم على المستوى المعنوي للمجاهدين خاصة بعد تطويق الحدود والسياسة النفسية الفرنسية المنتهجة على الجزائريين؟

نظرا لطبيعة الموضوع وخصوصيته، فإننا اعتمدنا على المنهج التاريخي والوصفي والذي استخدمناه في وصف وعرض الوقائع والأحداث التاريخية المتعلقة بالهجوم على مركز الحوران وتجلياته وانعكاساته على المجاهدين والعدو الفرنسي، وتتبع مختلف النصوص والتصريحات والآراء الناتجة عن الحدث وقيادة الولاية الثالثة والفاعلين فيها.

كما استعملنا المنهج التحليلي كلما دعت الضرورة من أجل دراسة وتحليل مختلف الوقائع وأراء المجاهدين وموقف الإدارة الفرنسية من الحدث.

1-جغرافية الناحية وتنظيمها الإداري والعسكري:

1.1.الموقع الجغرافي للناحية وأهميته:

تقع الولاية الثالثة في شرق الجزائر، وتتألف من مجموعة هامة من الجبال منها: جبال جرجرة ووادي الصومام وجبال البيبان والجزء الغربي من جبال البابور، وقسم من السهول العليا السطايفية، وقسم من الهضاب العليا الشرقية، وجنوب وغرب جبال الحضنة[1]، تشترك

مع الولاية الثانية التاريخية من جهة الشرق من سوق الاثنين على البحر إلى غاية سطيف عبر خراطة على طريق الجزائر قسنطينة، وتحدها الولاية الأولى من سطيف إلى بوسعادة عبر برج بوعريريج والمسيلة، ومن الغرب تشترك مع الولاية الرابعة من زموري على البحر شمالا إلى بوسعادة جنوبا عبر الأخضرية والبويرة وسيدي عيسى وعين الحجل.[2]

تنتمي الناحية الأولى إلى المنطقة الثانية من الولاية الثالثة التاريخية حسب التقسيم الجغرافي للوطن بعد مؤتمر الصومام، وهي عبارة عن رقعة جغرافية هامة تصل مساحتها إلى 3800كلم^2 على شكل مثلث مقلوب[3]، يحدها شمالا الطريق الوطني رقم 05 فيما بين برج بوعريريج والمسيلة، وشرق بالطريق الوطني الرابط بين برج بوعريريج والمسيلة، وجنوبا بالطريق الوطني فيما بين المسيلة وسيدي عيسى، أما غربا فتُحد بغابة "بني وقاق"[4].

موقع الناحية هام جدا إذْ أنه يتاخم ثلاث ولايات، الولاية الأولى، الولاية السادسة والرابعة، هذا بالإضافة إلى حصانة الجهة ومناعتها الطبيعية، لاسيما في غربها؛ حيث توجد غابة البيبان وبني وقاق وكذا في شمالها أين توجد مرتفعات الدريعات والقصور وغابة القلالة، ولعل حصانة الموقع واستراتيجية المكان هي الميزة التي امتازت بها الناحية، فكانت قوة العدو بهذه الناحية كبيرة جدا[5].

موقعها الجغرافي جعلها تلعب دورا هاما في الربط بين الولاية الأولى والسادسة والرابعة فكانت محطة تموين للدوريات المتجهة نحو الشرق، ومصدرا هاما لتموين الجهات الأخرى من الولاية الثالثة لكونها كانت منطقة رعوية وفلاحية في آنٍ واحد، والشاهد على ذلك مخازن بني وقاق الكبيرة لمؤن المنطقة، وهذا ما جعل العدو الفرنسي يركز قواته في هذه الجهة، حيث بلغ عدد المراكز الفرنسية حوالي 25 مركزا بالناحية.[6]

إن الموقع الهام للولاية الثالثة زادته أهمية تضاريسها المتنوعة وجبالها المرتفعة، وهي مشهورة بمضائقها وخوانقها العميقة والضيقة، وبحدة قممها وشدة انحدارها، فالكتل الجبلية تنتمي إلى سلسة الاطلس التلى الممتدة من الشرق إلى الغرب، وتحديدا إلى الكتلة الجبلية الشرقية التي

يفصلها عن الكتلة الغربية جبال زكار ومليانة ابتداء من جبال البليدة والأطلس البليدي، تمتد هذه المنطقة إطارها الجبلي ابتداء من شرق جبال بوزقرة الصعبة التي تشرف على العاصمة، ثم جبال جرجة وجبال البابور والبيبان، وهي مسطحة في جزئها الجنوبي تقريبا[7].

هذه التضاريس التي انبهر بها العقيد "بيجار" في جويلية من سنة 1958م عندما أشرف على عملية تمشيط شاملة لمنطقة جرجرة وحط بمروحيته على قمة "ثامقوط" لالة خديجة الشامخة التي ترتفع عن البحر المتوسط بـ 308م أين أخذ يتأمل بمنظاره المقرب تلك التضاريس في مختلف الجهات، لاسيما وأن مجال الرؤية أمامه يمتد ويتسع إلى أفاق بعيدة، فقال مبهورا: "ما أجمل!! وما أروع!! ما أرى إنها لمناظر طبيعية ساحرة...خلابة!!...لو لا أنها في خدمة الفلاقة..."[8]

تتميز بغطاء نباتي متنوع دائم الخضرة، متوسط الكثافة، من أشجاره الصنوبر، البلوط، العرعار، الصفصاف، الضرو، الزيتون والتين وغيرها، تتخللها بعض السهول الفلاحية، يمارس فيها السكان الزراعة وتربية الحيوانات، كما أن نسبة الرطوبة فيها كبيرة وتغطي الثلوج قممها العالية في فصل الشتاء.[9]

2.1.التنظيم الإداري والعسكري للناحية بعد 1956م:

كان من ضمن مبادرات العقيد عميروش[10] بعد تعينه قائد للولاية الثالثة التاريخية إنشاء فيلق التدخل للولاية وكتائب التدخل على مستوى المناطق، وفرق كومندوس على مستوى الأقسام الحرة، من أجل تطوير فعالية القوات المسلحة وتسديد ضربات موجعة للعدو؛ بحيث كان يسهر شخصيا على متابعة نشاطات كل الوحدات ويقوم بتفتيشها للاطلاع على سير الأعمال ويتخذ القرارات في حق من يقصر في المسؤولية[11].

لقد تميزت وحدات جيش التحرير الوطني قبل الهيكلة النظامية والعسكرية قبل 1956م بالبساطة من حيث تنظيم أفواجها وقادتها وتسليحها، وعليه فإن الأفواج المتواجدة بالناحية

كان عددها قليل، ومشكلة أساسا من المسبلين، يحمل معظمهم بنادق صيد، أما القادة فهم المجاهدون الذين شكلوا النواة الأولى للثورة (الفاتحون)، بالإضافة إلى أعيان القرى والمداشر[12].

وما يمكن التأكيد عليه هو أن المجندين في صفوف الجيش الفرنسي قد أعطوا دفعًا جديدا للثورة سواء تعلق الأمر بنوعية أسلحتهم أو معرفتهم لمختلف فنون القتال، هذا إلى جانب اطلاعهم على كثير من مواقع وأسرار الجيش الفرنسي.

02-واقع الثورة بالناحية من 1956م إلى 1958م

1.2.أهم الأحداث والمعارك بالقسم الثالث الولاية الثالثة(1956-1958)م

عرفت الناحية الأولى القسم الثالث عدة معارك أهمها:

- معركة عين بوعلي (بلدية الحامة حاليا) اندلعت المعركة يوم 05 جوان 1957م، تعود أسبابها إلى عملية تمشيط للعدو؛ حيث اكتشفوا من خلالها وجود مجموعة من المجاهدين بمنزل مسؤول النظام بلفار الطاهر، سحب المجاهدون إلى قرية عين بوعلي خوفا على السكان وكذلك لرؤية تحركات العدو جيدا، وفي حدود الثامنة صباحا بدأت قوات العدو مهاجمة موقع المجاهدين، يتقدمها الفوج الحامل لجهاز الاتصال، وما عن اقتربت من أماكن تخندق المجاهدين حتى امطروها بوابل من الرصاص، قضوا فيه على كل عناصر الفوج، استمرت المعركة قرابة الساعة، انسحب المجاهدون بعدها، كانت خسائر العدو كبيرة، كان سعيد سعود قائد للمعركة[13]، من نتائجها استشهاد 06 مجاهدين واعدام 12 مدنيا، كانتقام من المجاهدين، ونحو 40 قتيلا في صفوف العدو[14].
- كمين الحوران 20 نوفمبر 1956م بقيادة رابح الفرطاس.
- 30 ماي 1957م قامت قوات برية فرنسية بعملية تمشيط وحصار لمنطقة الدريعات وهي امتداد لعملية ملوزة في 30 ماي 1957م حيث قامت قوات العدو وعملائهم بحصار قرى ومداشر ملوزة حيث قاموا بعمليات اعدام جماعية، وتخريب واستيلاء على

الممتلكات واعتقال عدد من المواطنين، حيث كان من نتائج الحصار على الدريعات اعتقال خمسون شخصا[15].

- فيفري 1957م العش، تخريب واستهداف دار البلدية قام بها مسبلون عرفت استشهاد شهيد واحد وجريح واحد.
- تيحمامين(العش) وقع اشتباك مع قوة كبيرة من خلال وشاية أحد العملاء بوجود مجاهدين أدت إلى اشتباك استشهد فيه 07 شهداء و5 مدنين وحرق المركز وكذلك خسائر غير محددة للعدو.[16]
- معركة القربوصة[17]: إثر عملية تمشيط لقوات العدو بقرية الدريعات، اشتبكت مع فصيلة جيش التحرير بقيادة السعيد سعود بعد حوالي ساعة انسحبت قوات العدو لتترك الدور للطيران الذي بدأ بقنبلة المكان، لكن حصانة الموقع لم تسمح بإصابة المجاهدين ما عدا امرأة ورجل أصيبا بجروح خطيرة، المعركة حدثت في أكتوبر 1958م[18]، من نتائجها قتل 20 جنديا فرنسيا وجرح عدد اخر، واصيبت طائرة وتم تحطيم دبابة، وسلم جميع المجاهدين[19].

2.2.مصادر تموين الثورة بالسلاح (استراتيجية عميروش في تسليح الثورة)

اعتمدت الثورة في بداياتها في جانب التسليح على أسلحة الصيد التي كان يمتلكها الشعب، فكانت البندقية والخنجر قطعتان أساسيتان لكل مجاهد، فمثلت هذه البنادق ما نسبته95%والتي جمعت من سكان الأرياف، و5% مخلفات الحرب العالمية الثانية، وهي عبارة عن أسلحة أتوماتيكية خُبئت في الجبال تحضيرا للثورة[20].

وبعد مؤتمر الصومام 20 اوت 1956م فكرت قيادة الثورة في التموين بالأسلحة عبر الحدود الشرقية والغربية، وقد نظمت الولاية الثالثة عدة قوافل لهذا الغرض مثل: كتيبة القائد مسطاش[21]، ورابح الفرطاس ومقران سنة 1957م[22]، إلا أن هذه العملية كلفت الثورة خسائر كبيرة في الأرواح نظرا للصعوبات العديدة جراء الحصار العسكري الذي فرضع العدو

على الحدود، لاسيما مع الولاية الثالثة والتي ركزت القوات الفرنسية ثقلها عليها لمحاصرتها وإقامة قواعد عسكرية[23] حولها في محاولة منها للقضاء على الثورة، وحسب عبد العزيز واعلي الذي يرى أن قيادة الثورة دخلها الشك في فعالية التسليح عن طريق دوريات تونس، ما دفع العقيد عميروش إلى انتهاج استراتيجية جديدة والتي تتمثل في الهجوم على مراكز العدو؛ حيث يقول العقيد عميروش في هذا الصدد: "إن الاعتماد على هذه الدوريات في شأن التسليح يكلفنا خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وخاصة بعد شراسة العدو في منطقة الحدود وخطورة الخطين المكهربين، وحقول الألغام والعمليات الضخمة التي يلاحق بها العدو كتائبنا الداخلة من تونس...وأنا أفضل تعويض هذه الدوريات بكتائب الهجوم على مراكز العدو المتواجدة بالقرب منا؛ من أجل افتكاك الأسلحة وإنني على يقين من أن الإقدام على ذلك سيكون أسهل بكثير من اقتحام خطي شارل وموريس"[24].

وبالفعل بدأت سلسلة من الاستيلاءات على مراكز العدو في بداية سنة1958م بالناحية الأولى؛ حيث جرت عمليتين كبيرتين ناجحتين، الأولى بتاريخ 24 فيفري 1958م من خلال الهجوم على مركز الحوران، والثانية كانت بالهجوم على موقع الحراسة(عناصر الدفاع الذاتي بالمهير) حيث تم إخلاء الموقع وتحرير 43 عنصرا بكامل عدتهم والتي تمت بنجاح في 05 فيفري 1959م، بالإضافة على عملية معازة ومطوشة (العش) سنة 1958م فكرت قيادة الناحية عن طريق المسؤول السياسي في امكانية اخلاء مركز الدفاع الذاتي وامكانية التحاق عناصره الجزائريين للثورة وهو ما تم بعد اتصالات مكثفة قام بها المحافظ السياسي بوساق معمر(عبد العزيز) ومسؤولو القسم الثالث فتمكنوا من كسب ثقة مسؤول الدفاع الذاتي بواسطة أخيه يعدي الطاهر بن المسعود المهيكل في صفوف الثورة، وبهذا تمت العملية بحضور مسؤول الناحية رابح بلجرو والمحافظ السياسي بوساق معمر ومسؤولي القسم الثالث وفصيلة من الجيش دون اطلاق اية رصاصة، حيث التحق 30 عنصرا من الدفاع الذاتي بكامل عدتهم بالثورة[25].

كما كانت بعض الأسلحة عبارة عن هدايا أهدتها الإدارة الاستعمارية لعدد كبير من الجزائريين ودفعت بهم لضرب الثورة واختراقها من الداخل في إطار مؤامرة لاكوست[26]، والتي كانت نتائجها عكسية، حيث وفي ظرف قياسي جند وسلح العديد من المجاهدين المتظاهرين بولائهم لفرنسا فظلت فرنسا تسلحهم ما يقارب سبعة أشهر حتى وصل عددهم ما يقارب 600 رجلا[27]، وقطع السلاح 400 قطعة، قبل تفطن فرنسا لهم فرو إلى الجبال بأسلحتهم والتحقوا بالثورة في الولاية الثالثة[28].

3-التخطيط للهجوم على مركز الحوران:

1.3.موقع المركز: الحوران عبارة عن منطقة تقع على بعد حوالي 3كلم شمال مدينة حمام الضلعة التي تبعد بنحو 30كلم عن المسيلة، في المسلك المؤدي إلى جبل أولاد سيدي عمر[29] به ثكنة عسكرية فرنسية وهو بذلك يحتل نقطة استراتيجية وعقدة مواصلات تلتقي لديها عدة طرق[30] منها طريق الحمادية ،القصور، الدريعات وطريق سيدي عيسى، بني يلمان، ملوزة، وطريق بن دواود، حرازة، المنصورة وطريق المسيلة[31]، ينتصب عل ربوة وفيها دار لحراسة الغابات ومن خلاله يتم مراقبة جبال المنصورة وونوغة وبعبارة أخرى يشرف على الهضاب العليا والجبال المحيطة بها، وبالتالي على حركة جيش التحرير الوطني في تلك الناحية[32].

ونتيجة لموقعها الرابط بين ولايات الشرق بولايات الغرب، فقد شهدت عبور عدد كبير من قوافل المجاهدين وقادة الثورة؛ سواء في إطار جلب الأسلحة أو القيام بمهام عسكرية وسياسية مختلفة وعلى سبيل المثال نذكر: تواجد العقيد سي الحواس بالناحية سنة 1956م، العقيد الحاج لخضر، العقيد أحمد بن شريف، القائد عمر إدريس[33]، وعلى سبيل التخصيص نشير إلى الاجتماع الهام الذي عقد في سنة 1957م الذي جمع العقيد عميروش وسي الحواس بالمكان المسمى "بوسلمون" بقرية الدريعات وبالتحديد بمسكن رئيس اللجنة الخماسية بوساق المكي وقد كان هذا الاجتماع مغلقا، ضم العقيدين فقط، ودام أكثر من ثلاثة أيام.[34]

كان حراس الغابة قد اتخذوه قبل ذلك مربطا لهم وشيدوا فيه مساكن تأويهم، ولما اطلعت فرنسا على المكان وأهميته العسكرية اتخذته مركزا أماميا، فأجرت على بناياته تعديلات هامة تخدم مصالح عساكرها، دون أن تلغي بنايات حراس الغابة الذين أصبحوا فيما بعد جزء لا يتجزأ من عسكر العدو، يقدمون المساعدة في الميدان جغرافيا وعسكريا واجتماعيا، يتكون المركز من عدة هياكل منها:

- وحدة من سلاح الفرسان تحت قيادة ضابط برتبة ملازم ثانٍ يدعى دي بوس.
- يتكون أيضا من أربع بنايات تقوم على حراسة كل واحدة منها دبابتان مسلحتان بمدفع عيار 75 وآخر عيار12/7 ومدفع آخر نوع 30 أمريكي الصنع، وأربعة مدافع هاون عيار82 وعيار 60، بالإضافة إلى مدافع رشاش فرنسي الصنع من نوع 24/29 وآخر من نوع فيمباز أمريكي الصنع[35].
- يوجد في المركز قاعتين، مطعم ومطبخ وتصل بهما ثلاثة أبواب أحدها يصل بالساحة الخارجية، وثانيهما يؤدي إلى القاعة وثالثهما يذهب بك إلى ممر تحت الأرض ومنه إلى نقاط الحراسة وأبراج المراقبة[36].

2.3.الإعداد والتنظيم لاقتحام مركز الحوران:

شجع وألح العقيد عميروش ووحدات جيش التحرير بالولاية الثالثة للقيام بعملية الاستيلاء على الأسلحة والذخيرة من مراكز العدو وثكناته التي تعتبر مخازن أسلحة الثورة، وهكذا وقع الاستيلاء على بعض المراكز نذكر منها: عملية الاستيلاء على مركز الحوران في إطار برنامج منظم بالولاية الثالثة[37].

إن دراسة إمكانية تنظيم الهجوم على المركز لم تكن إلا بعد التأكد من كل عوامل النجاح، وقد استغرقت عملية التحضير والتخطيط هذه أكثر من سنة، ليتم عرض الخطة على قيادة الناحية التي بدورها اتخذت كل الترتيبات اللازمة لتنفيذ الهجوم، وهو ما تم بعد استشارة قيادة المنطقة[38]، بعد اتصالات سرية مع المناضل سي محمد زرنوح[39]العامل بصفوف الجيش

الفرنسي برتبة رقيب أول مسؤول الخدمات العامة في المركز والسعيد زموري مسؤول الاتصال والاخبار، في بيت البهلولي وزوجته فطيمة المدعو "المعَلْمَة"، فحسب شهادة المجاهد بوبكر مسعودي فإن المعلمة كانت تمتلك محل تجاري بمنطقة حمام الضلعة[40]، وكان زرنوخ من مرتادي هذا الدكان فحاولت هذه المناضلة أن تنسق معه بخصوص تعاونه مع الثورة، فصار ذلك وأصبح زرنوخ يرسل بواسطة هذه المناضلة بشيء من الذخيرة والمعلومات، وبعد التأكد من حسن نوياه وإخلاصه تقرر اعلام قائد الناحية[41] عبد القادر البريكي[42]، بعدها حدث تبديل للمسؤولين فجاء عبد الحفيظ عدوان خلفا لسعيد زوموري فلم يقطع الاتصالات مع زرنوخ، فأوحى له باستقصاء عام حول المركز وما يحويه من صغيرة وكبيرة، وفي نفس الوقت جرى تبديل قائد الناحية بقائد آخر وهو رابح بلجرو[43] المدعو الثايري والذي بدوره شجع عبد الحفيظ عدوان على التواصل مع زرنوخ والتقصي منه عن المركز وعدد قواته وجنوده وتنظيمه الداخلي.

في شهر نوفمبر 1957م طلب رابح بلجرو من عبد الحفيظ عدوان أن يعقد له لقاء مع محمد زرنوخ في بيت المعلمة، فحدث اللقاء وطلب منه تصميما دقيقا للمركز وكل ما يحويه من قاعات وعدد الأبواب المؤدية إليه ومواضع الأسلحة والدبابات، وكذلك نقاط الحراسة وأبراج المراقبة، وبعد حوالي شهر من ذلك تلقى عبد الحفيظ عدوان تقريرا مفصلا سلمه زرنوخ لمسؤول الاتصال والأخبار وعضو الناحية الأولى عيسى بلاندي، الذي بدوره سلمه لقائد الناحية رابح بلجرو، والذي عقد اجتماعا آواخر شهر نوفمبر 1957م مع أعضاء الناحية وهم: النعيمي بن عوف مسؤولا عسكريا، عيسى بلاندي مسؤول الاتصال والأخبار وبوبكر معمري مسؤولا سياسيا، درس المسؤولون المخطط من كل الجوانب لمدة أسبوع، وبعد التوافق بينهم قدم رابح بلجرو تقريرا لقائد المنطقة الثانية عبد الله القلعاوي المدعو أحمد مرزوق، لكنه لم يعر الموضوع اهتماما، وفي آواخر 1957م جرى اجتماع لمسؤول المنطقة ورؤساء النواحي بحضور العقيد عميروش حول فكرة اقتحام مركز الحوران.[44]

فتباحث الطرفان الموضوع جيدا فخرج رابح بلجرو متفائلا بإنجاز المهمة، وهنا بدأ تقسيم المهام وتوزيع المسؤوليات واتفقوا على الخطة الأخيرة، حيث طلب رابح الثايري من العقيد عميروش تزويد الناحية بفيلق يتكون من 03 كتائب وذلك لحماية ظهور المقتحمين فكانت المهام كالتالي[45]:

-كتيبة موح أرزقي لحماية ظهور المقتحمين ونصب الكمائن على طريق سيدي عيسى وبني يلمان حول حمام الضلعة[46].

-الكتيبة الثانية لنصب الكمائن بين بن داود والمهير وبين حرازة والمهير وبين برج بوعريريج والمنصورة والمهير.

-الكتيبة الثالثة تتمركز في بني وقاق لتسهيل المرور على المقتحمين بعد نهاية الاقتحام.

-لكن قيادة الناحية قررت أن تكون المهمة من اختصاص كتيبة الناحية فقط، حفاظا على السرية ونجاح العملية.

في جانفي 1958م أمر عميروش قائد المنطقة بإرسال فيلق محمد أورابح إلى الناحية الأولى ليكون تحت تصرف قائد الناحية[47]، وفي 02 فيفري اجتمع قادة الناحية الأولى وفي هذا الصدد يروي سعيد سعود المدعو لوتشكيس تفاصيل هذا الاجتماع، حيث أخبره رابح بلجرو بأنه من سينفذ المهمة وأن كل الإجراءات قد اتخذت وحضر للعملية في سرية تامة[48]، وعليه باختيار ثلاثة أفواج من جنود الكتيبة المسلحين بأسلحة أوتوماتيكية، يقول: "...فاخترت الجنود وعددهم 33 جنديا، فكان على رأس الفوج الأول النعيمي بن عوف وكنت من أفراده، والفوج الثاني بقيادة بلقاسم شرفاوي، والفوج الثالث بقيادة محمد واعلي أوخالد"[49].

كما شارك بعض مسؤولو الناحية والقسم ومسبلو الدريعات واولاد سيدي اعمر، ويروي المجاهد عبد المجيد عزي الذي كان من ضمن جنود الفيلق المرسل للناحية الأولى بعض التفاصيل، فبعد موافقة قيادة الولاية على الخطة تقرر حضور عبد الحميد مزاي كمسؤول

صحي للمنطقة والذي كلفني بتركيب التجهيزات الصحية وتحضير الأدوية والأدوات الجراحية لاستقبال الجرحى المحتملين، على ان يتكفل هو بتقديم الإسعافات الأولية في موقع المعركة إذا اقتضى الأمر ذلك[50]، فتم اعتماد خطة دقيقة قبل الاقتحام واختير 33 مجاهدا لتنفيذها.

2.3.تنفيذ الهجوم على مركز الحوران:

بعد أن حدد اليوم الهجوم في الرابع من فيفري سنة 1958م والذي وافق فصل الشتاء، فحسب رواية المجاهد صالح خير فإن ذلك اليوم كان باردا جدا والثلوج تغطي المنطقة، وكان هناك أكثر من ثلاثمائة جندي بمنطقة اولاد سيدي اعمر، ولم يكن أي واحد منا يدري بما يحدث، وقبل الهجوم نادى علينا رابح بلجرو في اجتماع، أمر كل مسؤول نظام بإحضار بغال وحبال.[51]

كانت هناك غابة كثيفة بأولاد سيدي اعمر وهنا انقسم الجيش إلى أفواج، فوج بقيادة لوتشكيس نزل مع الواد، وفوج نزل مع تاسا(حوش الحريقة)، وفوج من تاسا على عين السمارة إلى الجامع القريب من مركز الحوران[52].

تم تطويق المركز من كل الجهات والمسالك وعلى بعد25كلم تقريبا من كل الجهات، وفي حوالي الساعة السابعة إلا ربع وهو الوقت المتفق عليه بين القيادة تلقى المجاهدون الإشارة من طرف محمد زرنوح وكان رمز الشروع في العملية هو إشعال مصباح كهربائي يدوي ثلاث مرات[53]، ويروي إيف سيدري في كتابه أسرى الجنود أن الجندي بوني كان رفقة زميله في مهمة الحراسة على مستوى الباب الشائك للمدخل الرئيسي للمركز منذ اكثر من ساعة وهو يراقب مسالك القمم المشجرة حتى جاء الرقيب محمد زرنوح، وعند اقترابه من بوني قال له: "بإمكانك الذهاب إلى المرقد وسأخذ مكانك في الحراسة"[54]، فوافق بوني على ذلك.

حينئذ انطلق الفوج الثالث بقيادة محمد واعلي أوخالد ليحتل مكان تواجد الدبابات والعربات والاستيلاء على المدافع الرشاشة عيار 12/7[55]، ومدفع رشاش آخر امريكي الصنع

عياره30، والمدافع المحمولة على الدبابات عيار75، اما الفوج الثاني يشرف على الاستيلاء على الأسلحة الثقيلة كمدافع الهاون عيار 28 و60 واحتلال أماكن الحراسة وأبراج المراقبة.

أما فوج إبراهيم بن عوف فاتجه نحو المبنى الرئيسي الذي يوجد به رواق طويل فاقتحم سعيد لوتشكيس المطعم حيث كان الجنود يتناولون وجبة العشاء، حيث يقول سعيد سعود: "...أمرتهم برفع الأيدي لكنهم لم يستجيبوا ولم يصدقوا ثم اعدت الامر لكن كان هناك جندي في المطبخ أطلق عليا الرصاص فأصابني في كتفي الأيمن فاستندت على الحائط وبدأت بإطلاق الرصاص بواسطة بندقية رشاشة فقتلته"[56] وهذا ما يؤكده المجاهد أحمد غياط بنفس الرواية[57]، حاول البقية المقاومة لكن دون جدوى فقتب عدد منهم واستسلم البقية رافعين أيديهم، وحسب رواية المجاهد عوير عيسى فقد تم تقييد الأسرى بالحبال وعلى رأسهم الملازم ديبوس، وشرع باقي الأفواج في تحطيم الدبابات وتدمير المركز وجمع الأسلحة وتشبيكها كي يسهل حملها[58].

وبعد ذلك دخل المواطنون والمسبلون المركز واخذوا كل ما تركه المجاهدون من بقايا الطعام كالحبوب الجافة وبعض الألبسة وبعض الذخيرة التي لم ينتبه لها المجاهدون.

غادر المجاهدون المركز حوالي الساعة العاشرة وخمسة وأربعون دقيقة محملين بالغنائم على ظهور البغال ومعهم الأسرى مكبلين بالحبال ورافقهم مسبلو القسم الثالث باتجاه بني وقاق.[59]

وكان المسؤولون يفكرون في كيفية إتمام هذه المعجزة وإبلاغها إلى مأمنها إذْ كان من المتوقع أن العدو سيحشد حشود لمطاردة الوحدة التي ضربته في عقر داره ضربة قاسية وكانوا يتأملون في أقرب الطرق وأسهلها لتبليغ الأمانة إلى مركز الولاية[60]؛ حيث اتجهت القافلة نحو غابة بني وقاق في حدود منتصف الليل لتصل إلى المكان مع طلوع الفجر بعد مسيرة مضنية استمرت ستة ساعات عبر سفوح جبل سيدي اعمر ومنحدرات الحمراء وأولاد عباس وأحراش المهير حتى وصلوا إلى بني وقاق أين وجدوا كتيبة ثانية في انتظارهم بقيادة الملازم البشير البلولي، ثم تحركت القافلة في مساء الغد في اتجاه أكفادو وعند وصولهم إلى مشدالة تخلفت هناك كتيبة

الملازم محند واعلى (سي خالد) للاستراحة، بينما واصلت القافلة مسيرتها في اتجاه الموقع المحدد لها.

4-نتائج الهجوم على مركز الحوران وتأثيره على الساحة الوطنية:

أثناء تنفيذ عملية الهجوم على مركز الحوران تمكن جنديين من الاختباء في نفق تحت الأرض، استطاعا التنقل إلى مركز المسيلة في اليوم الموالي ولم يصلا هناك حتى الثانية زوالا، وبالتالي تأخر علم فرنسا بما حدث، وكان في صالح المجاهدين الذين ساروا بالغنائم وأصبح من الصعب اللحاق بهم.[61]

في اليوم الثاني من تنفيذ الهجوم على مركز الحوران قام العدو بإعلان حالة الطوارئ في كل الجهات لاسيما سطيف وبجاية وتيزي وزو والبليدة، فحشدت قوات ضخمة في محاولة منها لملاحقة ومحاصرة المجاهدين الذين قاموا بالهجوم، حيث قام بعملية تمشيط واسعة النطاق في الناحية وراح يقنبل القرى والدواوير والمشاتي المجاورة لحمام الضلعة[62]، وألقى القبض على المئات من السكان العزل لاستنطاقهم حول مصير الأسرى والأسلحة بل وأعدم الكثير منهم، كما أحرق عدة قرى وغابات كانت محيطة بالجهة[63].

لما وصلنا في اليوم الثاني وجدنا أهل دشرة أولاد سيدي اعمر هاربين الى هاربين الجبل خوفا من ردة فعل فرنسا بعد هذا الهجوم، كانت الثلوج تغطي المكان والبرد الجديد، كانت طائرتين صفراوتين تحومان على المكان بشكل سريع وكانت طائرتين اخريتين تحومان بشكل بطيء الى غاية القلالة والقصور والدريعات، ثم بلفون الى جبل قنيطيس وجهة الخرابشة وبعد وقت طويل غادرت الطائرات ولكن الطائريتين الصفراوتين تعودان احيانا حتى اختفتا تماما ولم يأتي العسكر الى الدشرة.[64]

هذا وقد وصلت وحدات الجيش الفرنسي إلى ضواحي الوادي البارد ومشدالة في صباح الغد من ذلك اليوم، أين وقع اصطدام بين الجيشين في معركة ضارية بين جنود العدو وأعضاء كتيبة الملازم محند واعلي (سي خالد)[65]، ولكن استراتيجية الموقع يجعل المعركة لصالح

المجاهدين لأن الموقع عبارة عن سفوح وعرة مغطاة بأشجار كثيفة ومجاري مياه مغطاة بدورها بنبات كثيف وعدم وجود طرق، استمرت المعركة إلى غاية حلول الظلام وكانت النتيجة سقوط ثلاث شهداء من كتيبة محند واعلي، أما العدو فقد سقط الكثير من جنوده في الميدان.[66]

إن الهجوم على مركز الحوران يعد من انجح العمليات التي قام بها جيش التحرير الوطني في الناحية الأولى، والدليل على ذلك حجم الغنائم التي غنمها الجنود وكذلك عدد الأسلحة والذخيرة، فقد مثلت هذه الغنائم حجم ما تجلبه عشر دوريات من تونس في عدة أشهر[67]، فكان لها نتائج جد إيجابية اعادت الاعتبار للثورة والمجاهدين والمسبلين ومواطني القسم الثالث، وزادت في توحد الصفوف ورصها، كما كان للعملية أثار سلبية على العدو وحطت من معنوياته وكسرت قاعدة الجيش الذي لا يقهر[68].

تم خلال الهجوم حرق 07 دبابات وعربتين مجنزرتين وسايرة جيب وشاحنة، 02 مدفع هاون عيار82، مدفع هاون عيار60، مدافع من نوع12/7، 07 قطع رشاشة ثقيلة نفس النوع 7/12، 07 مدافع رشاشة امريكية الصنع من نوع30، مدفع شراش من نوع فينمبار امريكي الصنع، مدفع رشاش فرنسي الصنع نوع 29/24، أجهزة اتصال سلكيو ولا سلكية، 25 بندقية نصف آلية فرنسية الصنع من نوع 56، 20 بندقية رشاشة فرنسية الصنع من نوع ماط، 18 مسدس نصف الي من نوع ماك50، حملت على 63 بغلا، كان هناك شهيد واحد وجريح وهو سعيد سعود حيث اصيب برصاصة في كتفه[69].

نشير أيضا أن العدو قام بعد هذا الانتصار الباهر بإعدام الملازم البطل سي الحسين صالحي الذي أسر في الميدان من طرف الجيش الفرنسي في ضواحي برج منايل حيث نفذوا تلك الجريمة الشنعاء في المكان يسمى "بوربعطاش" في ضواحي "أدكار" الأمر الذي جعل قيادة الولاية الثالثة تصدر حكم الإعدام بدورها على الملازم "دي بوس" الذي أسرى في مركز الحوران، وهكذا أخذ إلى نفس المكان "بوربعطاش" حيث نفذ فيه حكم الإعدام وكتبت

معلقة على صدره:"...إن النفس بالنفس والعين بالعين...والجروح قصاص..." وبعثت القيادة إلى أهله وصحيفة لوموند في فرنسا بمقال يتضمن هذه المعاني التي تندرج في قوانين العدالة والدفاع عن الكرامة وشرف الجهاد والوطن[70].

كما قام الجنرال صالان القائد العام للجيش الفرنسي بالجزائر بمراسلة مختلف الهيئات والقيادات العسكرية وإخبارها بظروف اقتحام مركز الحوران والاستيلاء عليه من طرف الفلاقة حسب تعبيره(المجاهدين) وبين خسارة الجيش الفرنسي في هذا الاقتحام من قتلى وأسرى وأسلحة ويطلب من الجميع اليقظة وأخذ الاحتياطات اللازمة[71].

أما بخصوص الجنود الأسرى وحسب رواية المجاهد سعيد سعود أنه" كان عدد الأسرى شخصا منهم اثنان (02)حرس للغابات من المنصورة وثلاثة(03) خونة و19 جندي فرنسي، منهم الضابط دي بوس الذي أعدم بقرار من قيادة الولاية الثالثة، وجندي حاول الفرار فقتله المجاهدون، وجندي آخر مات في معركة بين المجاهدين والقوات الفرنسية، وآخر مات غرقا عند قطع الوادي فبقي 15جنديا..."[72]

كان العقيد عميروش حريصا على احترام المعاهدات الدولية في موضوع أسر الحرب، فكان يجلس معهم ويحاورهم عن الثورة، مما جعلهم يلمسون واقع الثورة الذي لا علاقة لما تنشره الصحافة الفرنسية من دعايات مغرضة[73]، وأبرز الشواهد على ذلك أسرى الحوران رفقة قائدهم ديبوس، فكان عميروش يأمر بحسن معاملتهم وهو ما يؤكده الملازم ناصري علاوة الذي كان ضمن فرقة الحماية عند إطلاق سراحهم: "كنت قائد فوج في كتيبة الضابط الأول بوبكر رجراج، تلقينا أمرا من العقيد عميروش شخصيا بمرافقة الجنود الأسرى إلى غاية مشارف إعكورن(عزازقة)، اخبرناهم بأننا سنطلق سراحهم فابتهجوا جميعا، كان بينهم جندي تعاطف معي، عند وصولنا إلى تل يشرف على القرية نزلنا نحو الطريق الوطني الرابط بين أذكار وعزازقة، وبالمكان الذي حدده لنا العقيد بالتحديد، أخبرنا أسرانا بأنهم طلقاء وطلبنا منهم أن يتبعوا الطريق الوطني إلى غاية القرية، ولما ساروا بعيدا لاحوا إلينا بإشارات بأياديهم

معبرين عن فرحهم باستعادة حريتهم بعد طول معاناة..."، إن الضابط الوحيد الذي لم ينجو من الموت فكان من المقرر أنْ تتم عملية تبادل للأسرى، أي استعادة الضابط الحسين صالحي المعتقل في مدينة القصر[74]، وذلك بوساطة الصليب الأحمر، لكن فرنسا رفضت ذلك، وفي نفس الوقت قام عميروش بمراسلة عائلة ديبوس معبرا عن رغبته في تبادل الأسرى، وحسب ما يراه جودي أتومي فإن عميروش سعى من خلال هذا لإنقاذ الحسين صالحي الذي له مكانة خاصة في قلبه من جهة، ومن جهة أخرى فإن نجاح عملية تبادل الأسرى دليل واعتراف ضمني لجيش التحرير الوطني بصفته طرفا في الحرب، لكن فشل هذا المسعى واعدام الضابط حسين صالحي في جوان 1958م بالقرب من القصر من طرف الكولونيل "ليريتية" هو مادفع بعميروش إلى اتخاذ نفس القرار بحق الملازم ديبوس فاعدم بعد شهر من ذلك في نفس المكان الذي اعدم فيه حسين صالحي، ووضعت فوق صدره ورقة كتب فيها "السن بالسن والعين بالعين، هذه حدود القصاص، قتلتم الضابط صالحي حسين فقتلنا الضابط أوليفيه ديبوس..." وكان ذلك في جويلية 1958م[75].

ومن جهة أخرى وبعد الاستيلاء على مركز الحوران ونقل الأسلحة والأسر بأمان فقد عمت الفرحة جميع مجاهدي ومسؤولي المنطقة الثانية لاسيما قائد الولاية عميروش الذي أبى بعد هذا الانتصار إلا أن يجازي المسؤولين عن الكتيبتين المنفذتين للعملية بترقيتهم وإعطائهم أوسمة عسكرية وتقديم الشكر والتشجيع لجميع المجاهدين في اجتماع بهيج في نفس المنطقة ولهذا السبب قال عميروش:"...إنه عمل عظيم الذي قمتم به...أهنئكم، وهكذا يجب أن يكون كفاحنا، فعلى جميع النواحي والمناطق أن تتأمل وتعمل مثل هذا بهذه الروح والإقدام سنعطى درسا لن ننساه أبدا..."[76].

1.4.استراتيجية قادة الناحية في إيصال السلاح لقيادة الولاية الثالثة

بعد الانسحاب من مركز الحوران على محورين، فصيلة محمد أرزقي التي تنصب الكمائن على طريق غرب بني يلمان، انسحبت على السلاطنة فلمجاز ثم واد أقلاس، أما فصيلة

محمد النذير بوشمال فالتحقت بالفصيلة الموجودة في أولاد سيدي اعمر، أما الفصيلتان المتمركزتان لحماية الفصائل الأخرى فدخلوا المركز لحمل الغنيمة.[77]

مرت القافلة بأولاد سيدي اعمر ثم أهل الحمراء، وآخرون مروا بأولاد عباس، وكان تعداد القافلة حوالي 220 شخصا بالإضافة إلى الأسرى و63 بغلا محملة بالعتاد الحربي[78].

في منطقة المنصورة انقسموا إلى قسمين، قسم سار باتجاه وادي أفلاس، وقسم سار باتجاه تمحليت (لمري)، ومع شروق الشمس سلموا حمولة البغال لقيادة الفيلق وكذا الأسرى، وفي المساء اجتمعت كل الفصائل والكتائب فوق تمحليت قرب بني وقاق، وقررت القيادة نقل السلاح إلى أكفادوا مركز القيادة، وتقرر أيضا تقسيم القافلة إلى أربعة أقسام لحفظها والتخفيف على حركة السير وتمويه العدو[79].

وفي 06 فيفري 1958م سلكت الكتيبة الأولى طريقها نحو الوادي البارد تحت تيكجدة في جبال جرجرة، والكتيبة الثانية سارت نحو مشدالة اتجاه إبواقورن، والثالثة عبرت واد الساحل نحو شمال الشرفة وسلوم، أما الكتيبة الرابعة والتي كانت معها قيادة الناحية الأولى فقد توزعت على ثلاثة فصائل[80]، فصيلة سارت في اتجاه ثاقربوزت بقيادة محمد النذير بوشمال، والثانية كانت وجهتها البهاليل بقيادة بلقاسم شرفاوي، والثالثة أخذت مسلكا نحو بوحمدون بقيادة محمد واعلي أو سي خالد[81].

وحدث اشتباك مع فصيلة بوشمال فوق ثاقربوزت وامتد هذا الاشتباك حتى وصل إلى فصيلة بلقاسم شرفاوي بالبهاليل، ووقعت فيه بعض الإصابات، انتقلت فصيلة بلقاسم شرفاوي من البهاليل إلى أوزلاقن ثم إفري إلى غابة صمعون ثم أكفادوا[82]، وفي نفس الشهر دخلت القافلة إلى أكفادو بغنائمها، حيث كان العقيد عميروش في استقبالها بحرارة، قال: "إنكم قمتم بعمل عظيم وأشكركم على هذا الإنجاز الهام الذي سيسجل في ذاكرة التاريخ، كي لا يمح، ولا أنس الذين قاموا بعملية الاقتحام المنجزة بحكمة وتبصر، وهكذا يجب أن

يكون كفاحنا، فعلى جميع المناطق والنواحي أن تأخذ منها العبرة وتتخذها قدوة ولمثل هذا فليعمل العاملون، وبهذه الروح نعطي العدو دروسا في الحرب..."[83].

2.4. زيارة العقيد عميروش للقسم الثالث بالناحية الأولى

كان العقيد عميروش يحرص شخصيا على متابعة نشاط الوحدات ويطلع على سير أعمالها، وكان صارما في معاقبة كل من يقصر في واجبه، وساعد ذلك على انتشار نوع من التنافس بين الوحدات القتالية والمناطق والنواحي، بعد مبادرته بتقليد أوسمة الشرف على أكفأ الجنود الذين يغتنمون كمية كبيرة من الأسلحة في المعارك، فكان يفتخر ويعتز بجنوده، فهم قادرون على تحقيق المعجزات أمام العدو[84].

في شهر أفريل 1958م قام العقيد عميروش رفقة العقيد لطفي بزيارة إلى الناحية الأولى المنطقة الثانية، وكان من عاداته أنه لا يغادر منطقة يزورها إلا واطمأن على أحوال المواطنين[85]، فعند مروره بالدريعات أولاد بوحدي كان برفقته ايضا بعد القادر البريكي، جلس مع المواطنين متقصيا احوالهم اليومية ومشاكلهم وممارسات العدو ضدهم من تعذيب وتنكيل وتقتيل، وكذا عن علاقتهم بجبهة التحرير الوطني ومعاملتها لهم، وهو الشيء الذي خفف من معاناتهم ورفع معنوياتهم[86].

طلب العقيد عميروش من قائد الناحية رابح بلجرو أن يجتمع مع قادة الناحية الأولى والجنود والمسبلين، حيث شكر الجميع على العمل الثوري الجبار الذي قاموا به أثناء إخلاء مركز الحوران، فشجعهم كافة وحثهم على المزيد من النضال والجهاد الفعال وأوصاهم بالحذر والتزام اليقظة أثناء مواصلة الكفاح الناجح[87]، وأبى العقيد عميروش إلا أن يعلق أوسمة الافتخار للمجاهدين الذين قاموا بمهمة الهجوم على المركز، وكان عددهم 35 مجاهدا بقرية الدريعات، بحضور ضابط قدم من الولاية الخامسة، وموسى الطيب فرحات (سي شرفي) وضابط آخر من الولاية الأولى وهو سي بلمسعود، وذلك بعد شهرين من هذا العمل الجبار، هذا ما جاء في شهادة بوبكر مسعودي الذي كان أحد الحاضرين في هذه الزيارة[88].

كما شكر ومدح قادة الناحية الذين ساهموا بفعالية في العملية، وهنأ المواطنين والمسبلين لما قدموه من روح التضحية[89]، وكان صاحب أكبر مكافأة هو زرنوح محمد الذي قلد من أيدي عميروش رتبة مرشح، أحس زرنوح بالدموع في عينيه عندما لامست يدا عميروش كتفيه ليعلق الشارات، وكله فخر بالعمل تحت راية جبهة التحرير الوطني[90].

وفي اليوم الثالث من الزيارة غادر العقيد لطفي الناحية عبر مسلك الخرابشة فأولاد منصور في اتجاه بوسعادة الولاية السادسة نحو الولاية الخامسة، وعاد العقيد عميروش إلى أهل الحمراء ثم بني وقاق[91].

خاتمة: يعتبر الهجوم على مركز الحوران (مركز القاعدة العسكرية لسلاح الفرسان) التابعة لقوات العدو الفرنسي من أهم الانتصارات التي حققها جيش التحرير الوطني، حيث تمكن من قهر آلة الدمار الفرنسية وتلقينهم درسا في الكفاح والتضحية والتخطيط المحكم للعمليات العسكرية.

إن نجاح هذه العملية يكمن في وحدة الهدف والمصير المشترك والايمان بعدالة القضية الذي أمن به مجاهدو الولاية الثالثة كل من موقعه، ومثال ذلك المجاهد محمد زرنوح الذي كان مجندا في صفوف الجيش الفرنسي، وكان في خدمة الثورة التحريرية من خلال تقديم يد المساعدة للمجاهدين ودعمهم بالذخيرة والألبسة ونقل المعلومات إلى قيادة الولاية الثالثة عن طريق مسؤولي الاتصالات والعلاقات، الامر الذي سهل مهمة الهجوم على مركز الحوران.

مثل الهجوم على مركز الحوران مثالا حيا يقتدى به، حيث كان العقيد عميروش في اجتماعاته مع مجاهدو المناطق والنواحي يحثهم على القيام بعمليات مماثلة، حتى تستغني الولاية الثالثة عن جلب السلاح من تونس التي يترتب عليها الكثير من المشاق والأخطار وسقوط الضحايا.

الهجوم على مركز الحوران خلال الثورة التحريرية.

أكد الهجوم على مركز الحوران مرة أخرى على الدور الهام للمرأة في الثورة الجزائرية، فهي حاضرة للمساهمة في تحرير بلادها في أي موقع كانت وبالطريقة والوسيلة المناسبة التي تقتضيها المرحلة.

الهوامش:

---

[1]-يحي بوعزيز، قاموس الشهيد، ج1، المنظمة الوطنية للمجاهدين، المكتب الولائي برج بوعريريج، دار الهدى، 2002م، ص17.

[2]-نفسة، ص15

[3]-يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص15.

[4]-بني وقاق: هو عبارة عن الجزء الجنوبي الغربي من غابة البيبان الصنوبرية، والذي يحوي في سفوحه القرية القبائلية بني وقاق، التي تنسب لها الجهة كلها، وكان كل سكانها منخرطون في الثورة مما دفع العدو لإجلائهم، فأصبحوا لاجئين في قرى حرازة، آيت سيدي إبراهيم وتيقصراي، وهي من المناطق الاستراتيجية الحصينة. انظر: عبد العزيز واعلي، المصدر السابق، ص117.

[5]-عبد العزيز واعلي، المصدر السابق، ص-ص(116-117).

[6]-نفسه، ص117.

[7]-عبد القادر حليمي، جغرافية الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م، ص50.

[8]- عبد العزيز واعلي، "سير ومناقب قيادات مناطق الولاية التاريخية الثالثة"، مجلة أول نوفمبر، ع171، ديسمبر 2007م، ص49.

[9]-يحي بوعزيز، الثورة في الولاية الثالثة، المرجع السابق، ص-ص(16-17).

[10]-هو آيت عميروش حمودة ولد في شهر أكتوبر من سنة 1927م بقرية تاسفت أقمون، عين الحمام حاليا، انخرط في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية وذلك منذ سنة 1950م، وفي هذه السنة ألقي عليه القبض من طرف السلطات الاستعمارية ومنعته من الإقامة في الجزائر أين اضطر للسفر إلى فرنسا في سنة 1954م حيث واصل نضاله حتى عاد للجزائر في أواخر السنة المذكورة، وقد تقلد عدة مناصب أثبت في مختلفها قدرة فائقة مما خوله أن يكون قائد للولاية الثالثة من ربيع 1957م إلى مارس

1959م تاريخ استشهاده في جبل ثامر ببوسعادة. انظر: محمد عباس، دغول...والجزائر نداء الحق، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2003م، ص-ص(30-34).

[11]-جودي أتومي، المصدر السابق، ص-ص(11-12).

[12]-تقرير حول تاريخ الثورة بالناحية الأولى، المصدر السابق، ص10.

[13]-تقرير حول تاريخ الثورة بالناحية الأولى المنطقة الثانية، المرجع السابق، ص13.

[14]-المنظمة الوطنية للمجاهدين بالمسيلة، المصدر السابق، ص18.

[15] - تقرير حول تاريخ الثورة بالناحية الأولى المنطقة الثانية، المرجع السابق، ص33.

[16]- نفسه، ص18.

[17]-منطقة تقع في أعالي جبال الدريعات، وهو مكان ذو تاريخ عظيم، ويعتبر أكبر مركز لجيش التحرير في المنطقة. انظر: سعيد سعود، المصدر السابق، ص123.

[18]-صوالح محمد الطيب، سردية مجاهد (معارك الحرية في الولاية الثالثة)، ط2، نواصري للطبع، المسيلة، 2020م، ص229.

[19] -الجمعية العامة لناحتي حمام الضلعة وسيدي عيسى، المرجع السابق، ص24.

[20]-الطاهر جبلي، الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية(1954-1962)، وزارة الثقافة، دار الأمة، الجزائر، 2015م، ص137.

[21]-هو يوسف حسين الملقب بمسطاش، ولد سنة 1921م في بوعنداس نواحي سطيف، تجند في الهند الصينية، عمل كهمزة وصل لقوافل التموين بالسلاح من وإلى تونس، التحق بالثورة في 1955م، عين في رتبة ملازم عسكري أثناء مؤتمر الصومام، سقط في ميدان الشرف في الأيام الأولى من انطلاق عملية جومال. أنظر: جودي أتومي، المصدر السابق، ص-ص(98-99).

[22]-تقرير حول تاريخ الثورة بالناحية الأولى، المرجع السابق، ص5.

[23]-يحي بوعزيز، الثورة في الولاية الثالثة، المرجع السابق، ص314.

[24]-عبد العزيز واعلي، المصدر السابق، ص119.

[25]-تقرير حول تاريخ الثورة بالناحية الأولى، المرجع السابق، ص41.

[26]-اعتبرت إحدى السياسات الشيطانية للقضاء على الثورة عسكريا، فشرع لاكوست في اعداد مشروعه من قبل جاك سوستيل والذي عرف بعملية العصفور الأزرق أو الطائر الأزرق، والذي وقعت أحداثه بالولاية الثالثة، اعتمد المشروع على تجنيد الموالين لفرنسا ودفعهم للجبال والانخراط في الثورة، فاختارت ثلاثة أشخاص اعتقدت انهم الموالين لها وهم: احمد زيدان، الطاهر عشيش ومحمد يازوران، فاتصل هؤلاء الثلاثة بقيادة الولاية الثالثة واخبروهم بالمخطط. انظر: الطاهر جبلي، المرجع السابق، ص113.

[27]-يحي بوعزيز، الثورة في الولاية الثالثة، المرجع السابق، ص113.

[28]-الطاهر جبلي، المرجع السابق، ص156.

[29]-هجرسي خضراء، "الهجوم على مركز الحوران 04 فيفري 1958م من خلال الذاكرة الشفوية"، مجلة الدراسات التاريخية، ع22، ص202.

[30]-عبد العزيز واعلي، المصدر السابق، ص256.

[31]-هجرسي خضراء، المرجع السابق، ص202

[32]-نفسه.

[33]-نفسه.

[34]-تقرير حول تاريخ الثورة بالناحية الأولى، المرجع السابق، ص18.

[35]-سعيد سعود، المصدر السابق، ص128.

[36] -نفسه، ص135.

[37]-هجرسي خضراء، المرجع السابق، ص203.

[38] -تقرير حول تاريخ الثورة بالناحية الأولى المنطقة الثانية من الولاية الثالثة، المصدر السابق، ص14.

[39]-ولد محمد زرنوح المدعو الحوراني بالزعفران-الجلفة-سنة1924م، وفي سنوات الأربعينيات انخرط في صفوف الجيش الفرنسي بمدينة المسيلة وعمره لا يتجاوز تسعة عشر سنة. تعاطف محمد زرنوح مع الثورة المسلحة منذ اندلاعها حيث لم يتردد بمدها بالذخيرة والألبسة وتزويدها بالمعلومات العسكرية أينما

تواجد، كان من المخططين للاستيلاء على مركز الحوران بحمام الضلعة سنة 1958م وبفضله تم الاستيلاء على كمية كبيرة من الذخيرة، ومنذ هذه العملية أصبح يلقب بالحوراني، خاض العديد من المعارك من بينها معركة تيمليوين التاريخية 1958م، معركة جبل الرفعة، استشهد في أفريل 1960م بميدان الشرف في معركة بضواحي القصر ولاية بجاية. أنظر: عبد العزيز وعلي، "بطلان من الجلفة الشهيدان: جفال بايزيد وزرنوح محمد"، مجلة أول نوفمبر، ع169، الجزائر، نوفمبر 2006م، ص-ص(82-83).

[40]-السعيد بلقاسم، الملازم الأول زرنوح محمد الحوراني: مخطط عملية الاستيلاء على مركز الحوران لجيش الاحتلال الفرنسي، .40: 14 ,13/04/2024.www.djelfaainfi.dz

[41]-عبد العزيز واعلي، المصدر السابق، ص.190

[42] -عبد القادر البريكي اسمه الحقيقي عبد القادر عزيل من بريكة، ولد في 14 جوان 1927م، عمل في فرنسا في مصنع صهر الحديد، عاد إلى بريكة والتحق بالثورة مبكرا، عينه عميروش قائد للكتيبة في المنطقة الأولى، ثم أصبح قائد فيلق للتدخل السريع، ثم عينه قائدا عسكريا على المنطقة الثانية، قاد عدة عمليات عسكرية منها اشرافه على عمليات الإعدام في بني يلمان 1957م، سافر إلى تونس في 17 جوان 1958م مبعوثا من قبل عميروش، استشهد في عنابة سنة 1960م. انظر: جودي أتومي، العقيد عميروش امام مفترق الطرق، ج2، المصدر السابق، ص102.

[43] -اسمه رابح بلجرو من بلدية بن داود، ولد سنة 1927م، نشأ في أسرة فلاحية، حفظ القرآن الكريم وتفقه فيه، واصل دراسته بجامع الزيتونة بتونس، ناضل في صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائرين، ولما عاد إلى الوطن عين إماما بمسجد القرية، التحق بالثورة سنة 1956م، كان قائد للناحية الأولى، ألقي عليه القبض اثنائ معركة بجبل الدريعات فنفذ فيه حكم الإعدام سنة 1958م. انظر: يحي بوعزيز، قاموس الشهيد، ج2، المرجع السابق، ص18.

[44] -سعيد سعود، المصدر السابق، ص131.

[45] -نفسه، ص132.

[46] -عبد العزيز وعلي، أحداث ووقائع من تاريخ الثورة، المصدر السابق، ص190.

[47] -سعيد سعود، المصدر السابق، ص133.

[48] -لقاء مع المجاهد غياط أحمد، المنظمة الولائية للمجاهدين، المسيلة، 2016/12/08م. نقلا عن : هجرسي خضراء، المرجع السابق، ص205.

[49] -سعيد سعود، المصدر السابق، ص-ص(134-135).

[50] -عبد المجيد عزي، مسيرة كفاح في جيش التحرير الوطني الولاية الثالثة، دار الجزائر للكتب، الجزائر، 2011م، ص133.

[51] -لقاء مع المجاهد صالح خير، المصدر السابق.

[52] -نفسه.

[53]-لقاء مع المجاهد خناش العيد، بقسمة المجاهدين بحمام الضلعة، 09 مارس 2024م، 09:06.

[54] -شحطة عبد الباقي:.www.djelfaainfi.dz, 22/03/2024, 09 :01

[55]-سعيد سعود، المصدر السابق، ص136.

[56]-نفسه.

[57]-أحمد غياط، المصدر السابق.

[58]-وهو أحد المجاهدين الحاضرين في عملية الهجوم، ولد سنة 1938م، بملوزة من عائلة بسيطة، التحق بالثورة في أيامها الأولى، ألقي عليه القبض في مركز ملوزة، أين تعرض للتعذيب وتم الحكم عليه بالإعدام رفقة مجاهدين آخرين، لكنه تمكن من الهروب ليلة إعدامه، شهد عدة معارك منها: معركة الرفراف وبني وقاق واقتحام مركز الحوران. لقاء مع المجاهد عوير عيسى، منزل المجاهد بحمام الضلعة، 30ديسمبر 2023م، 14:55.

[59] -لعموري داود: تسجيل صوتي بمتحف المجاهد، المسيلة، 08 ديسمبر 2022م.

[60]-نفسه.

[61] -سعيد سعود، المصدر السابق، ص144.

[62]-عبد العزيز واعلي، المصدر السابق، ص187.

[63]-نفسه

[64] -صوالح محمد الطيب، المصدر السابق، ص145-146.

[65]-عبد العزيز واعلي، أحداث ووقائع في ثورة التحرير بالولاية الثالثة، المصدر السابق، ص-ص(258-259).

[66]-عبد العزيز واعلي، "الشهيد الملازم بن سي خالد محند واعلي المدعو سي خالد"، مجلة أول نوفمبر، العدد179، مارس 2015م، ص84.

[67]-عبد العزيز وعلي، أحداث ووقائع...، المصدر السابق، ص184.

[68]-شحطة عبد الباقي:01: 09 ,30/01/2024 ,www.djelfaainfi.dz

[69] -واعلي عبد العزيز، احداق ووقائع في تاريخ الثورة، المصدر السابق، ص187.

[70]-هجرسي خضراء، المرجع السابق، ص210.

[71]-نسخة عن الوثيقة موجودة بمتحف المجاهد بالمسيلة.

[72]-سعيد سعود، لقاء مسجل، المصدر السابق.

[73]-جودي أتومي، العقيد عميروش أمام مفترق الطرق، المصدر السابق، ص-ص(192-193).

[74]-جودي أتومي، العقيد عميروش بين الواقع والأسطورة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2008م، ص226.

[75]-نفسه، ص268

[76]-شوقي عبد الكريم، المرجع السابق، ص165.

[77]-خير الصالح، لقاء ببيت المجاهد، حمام الضلعة، 2024/02/14م، 13:54.

[78]-سعيد سعود، المصدر السابق، ص138.

[79]-نفسه.

[80]-نفسه، ص139.

[81]-نفسه، ص140.

[82]-تأتي هذه المعركة في إطار مجهود قتالي بذله جنود جيش التحرير الوطني لاختراق خطوط العمل وايصال الغنائم إلى وجهتها، والبهاليل جبل يقع في أعالي بلدة الشرفة، فهناك وقع اشتباك وتخل الطيران، استشهد حوالي 30 شهيدا. انظر: جمعية أول نوفمبر لحماية وتخليد مآثر الثورة التحريرية لولاية برج بوعريريج، دار الهدى، عين مليلة، 2009م، ص99.

[83]-سعيد سعود، المصدر السابق، ص141

[84]-جودي أتومي، العقيد عميروش أمام مفترق الطرق، المصدر السابق، ص216.

[85] -محمد مرزوقي، لقاء في بيته، حمام الضلعة، 23 أفريل 2024م، 13:17.

[86]-لقاء مع المجاهد بوهدي محمد، المصدر السابق.

[87]-السعيد سعود، المصدر السابق، ص158.

[88]-عبد العزيز وعلي، أحداث ووقائع في تاريخ ثورة التحرير، المصدر السابق، ص190.

[89]السعيد سعود، المصدر السابق، ص158.

[90]-جودي اتومي، العقيد عميروش...، المصدر السابق، ص130.

[91]-نفسه.

التجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية وتداعياتها البيئية والاجتماعية ما بين عامي 1960 - 1962م

French Nuclear Tests in the Algerian Desert and Their Environmental and Social Impacts Between 1960 and 1962

أحمد شربيتي*

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة – الجزائر.

a.cherbiti@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/12/31	2024/01/15	2025/01/31

الملخص:

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية أعاد الفرنسيون بعث مشروعهم النووي الذي توقف بسبب الحرب بالاعتماد على علماء فرنسيين، وبالاستفادة من خبرات الحلفاء، كان الهدف المعلن إنتاج الطاقة بالاعتماد على الوقود النووي، مع تطور الأحداث السياسي واشتداد التنافس الدولي بين والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، وتعرض فرنسا للتهديد بعد أزمة السويس، دفع بشارل ديغول بعد توليه رئاسة الجمهورية الخامسة لإصدار مرسوم لبناء عدد من المفاعلات النووية بغرض تطوير البحث لصناعة قنبلة نووية التي جربت في الجزائر وتسببت في كوارث بيئية أثرت على المياه والتربة والكائنات الحية وأصابتها بأضرار وحولت مناطق شاسعة من صحراء إلى مناطق محظورة.

الكلمات المفتاحية: التجارب النووية الفرنسية؛ الصحراء الجزائرية؛ التفجيرات النووية؛ التلوث الإشعاعي.

---

*المؤلف المرسل

Abstract:

After the end of World War II, the French revived their nuclear project, which had been halted due to the war, relying on French scientists and benefiting from the expertise of their allies. The declared goal was to produce energy using nuclear fuel. However, with the escalation of political events, the intensification of international competition between the United States and the Soviet Union, and France facing threats following the Suez Crisis, Charles de Gaulle, upon assuming the presidency of the Fifth Republic, issued an order to build several nuclear reactors to advance research for developing a nuclear bomb. These tests were conducted in Algeria, resulting in environmental disasters that impacted water, soil, and living organisms, causing significant damage and transforming vast areas of the desert into restricted zones.

Key words : French nuclear tests; Algerian desert; nuclear explosions; radioactive pollution.

مقدمة:

دخل العالم بعد الحرب العالمية الثانية منعرجا خطيرا أدى إلى التنافس العسكري والسياسي بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي للتطوير المزيد من الأسلحة الفتاكة لا سيما الأسلحة النووية من أجل افتكاك الهيمنة العالمية أو البقاء في قائمة الدول العظمى، وفي المقابل كانت فرنسا تخسر هيبتها الدولية في مستعمراتها بعد الهزائم التي لحقت بها مما دفعها إلى تطوير برنامجها النووي الذي أرادت من خلاله تصنيع قنبلة نووية تعيد بها هيبتها المتصدعة، فكان لهذه السياسة أثر على الشعوب المستعمرة بما في ذلك الشعب الجزائري في منطقة الصحراء التي ابتليت بالكوارث الصحية والبيئية التي أحدثتها التجارب النووية، فما مظاهر هذه التجارب النووية؟ وما أثرها وتداعياتها على البيئة والمجتمع الجزائري في منطقة الصحراء (رقان، إن أيكر)؟

1- بدايات المشروع النووي الفرنسي:

كان المشروع النووي الفرنسي يعتمد بالدرجة كبيرة على علماء فرنسيين في الداخل والخارج المشاركين في مجال الذرة والطاقة النووية، فقد حاول الفرنسيون بعد الحرب العالمية الثانية تسخير جهودهم العلمية في مجال الطاقة النووية بالاعتماد على الخبرات المحلية، ففي 18 أكتوبر 1945م، أصدر رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة شارل ديغول قرار بإنشاء لجنة الطاقة الذرية، وجعل على رأسها عدد من العلماء البارزين منهم " فريدريك جوليو كوري" Jean Frederic Joliot ، وعدد من العسكريين المتخصصين في مجال المتفجرات من ذوي الخبرة، وتم تعيين موقع بناء مركز الأبحاث في "ساكلاي" جنوب فرنسا، وقبل اكتمال مركز الأبحاث استعمل الفرنسيون موقعا آخر للأبحاث بالقرب من باريس وتم إنشاء به أول مفاعل نووي، وأوضحت السلطات الفرنسية على الصعيد الدولي على أن مشروعها موجه لإنتاج الطاقة فقط في إطار سلمي.

رغم الصعوبات التي عان منها الفرنسيون إلا أنهم أحرزوا تقدما ملحوظ بعد سنين بفضل جهود عدد من العلماء وعلى رأسهم العالم النووي " برتراند جولدشميت" الذي اشتغل في المشروع النووي الكندي سابقا، فقد تمكنوا سنة 1949م من الوصول إلى استخلاص كمية ضئيلة من عنصر البلوتونيوم لترتفع نسب الاستخراج إلى 100 ملغ بحلول سنة 1951م استعمل لاحقا في عدد من التجارب المحدودة داخل المخابر، لكن حاجة الفرنسيين إلى مزيد من الطاقة ورفع كمية المواد المخصبة دفع بهم إلى بناء عدد من المفاعلات النووية.

كان إتمام مركز "ساكلاي" للبحوث النووية الفرنسي سنة 1952م الذي يعمل بالماء الثقيل -لتبريد المفاعل- واليورانيوم الطبيعي الانطلاقة الحقيقية للمشروع النووي الفرنسي بتعاون مع شركائها وعلماء أجانب من أجل الوصول إلى درجة مناسبة من

التخصيب، ففي الفترة الممتدة بين عامي 1954م- 1957م تمكن هذا المفاعل من إنتاج 200 جرام من البلوتونيوم[1].

كانت سنة 1951 بداية تفكير الفرنسيين في الذهاب بهذا المشروع إلى أبعد حد بدعم من الجنرال ديغول، فقد تولى في هذا العام منصب المفوضية السامية " فرانسيس بيران" في أفريل 1951م، وتم تعيين "فيليكس غاريا غايار" وزير المالية، وعين الجنرال " بيير جيلومات Pierre Guillaumat" خريج المدرسة الوطنية العليا للمناجم في باريس مديرا لوكالة الطاقة النووية، وقد عمل الثلاثة على دفع المشروع النووي الفرنسي، إذ خصصت وزارة المالية الفرنسية ميزانية كبيرة. لبناء المزيد من المفاعلات التي تحولت لأغراض عسكرية فيما بعد[2].

كانت هذه الأبحاث ظاهرها الوصول إلى إنتاج طاقة مستدامة كمشروع لأغراض مدنية لكن من ورائها رغبة الجمهورية الفرنسية وسعيها لضمان مكانتها الدولية كقوة مهيمنة على الشعوب المستعمرة. كانت مسألة امتلاك الفرنسيين لسلاح الدمار الشامل تتعلق بالأمن القومي في ظل التطورات السياسية والعسكرية الدولية خاصة في منتصف خمسينيات القرن العشرين، وبروز الصراع بين المعسكرين الشرقي والغرب بما يعرف لاحقا بالحرب الباردة، خاصة وأن السوفيات قد امتلكوا السلاح النووي سنة 1947م ولحقوا بالولايات المتحدة الأمريكية، ومن بعدهم المملكة المتحدة البريطانية.

أواخر سنة 1954م اتخذ الفرنسيون القرار بتطوير القنبلة الذرية بدعم من وزارة الدفاع واستحدثوا لذلك عدد من المصالح تحت إشراف المحافظة العامة للطاقة الذرية، من هذه المصالح: مديرية التطبيقات العسكرية Direction des Applications Militaires التي تخصصت في تصميم الأسلحة وأبحاث الأمن النووي تحت إشراف العقيد " ألبرت بوشالي Albert Buchalet " بمساعدة من " بيير بيلاند Pierre

"Billand" مدير مديرية الطاقة النووية الخبير في مجال الطاقة الذرية وتقنيات المفاعلات المدمجة (SMR) الذي ساهم في بناء مفاعلات نووية فرنسية متقدمة تقنيا لإنتاج الوقود النووي، وكان ضمن اللجنة التي أشرفت على مواقع الاختبارات والتجارب النووية في الجزائر.

إذ تم إنشاء محطة المفاعل النووي Zéro puissance ,Oxyde d' Uranium, (Eau Lourde) Zoé (EL-1)سنة 1956م الذي يعتمد على الماء الثقيل،"بالقرب من منطقة "شاتيون" بالقرب من باريس بهدف إجراء أبحاث لتطوير مفاعلات، لكنه كان صغيرا فتم نقل الأبحاث إلى محطة " ساكلاي "، وبناء منشآت أخرى في "ماركول" "Marcoule" في جنوب فرنسا بالقرب من نهر الرون بالقرب من مدينة أفنيون، إذ تضمن هذا الموقع عدد من المفاعلات النووية لإنتاج الوقود النووي، منها G1 الذي دخل الخدمة سنة 1956م بقدرة إنتاجية 38 ميجاوات وقدرة إنتاجية للبلوتونيوم تصل حتى 12 كغ سنويا و G2 سنة 1959م بقدرة إنتاجية تصل 200 ميجا وات، و G3 سنة 1960م بقدرة إنتاجية تصل 500 ميجا وات من نوع "UNGG" التي تعتمد على الغاز في التبريد، واليورانيوم الطبيعي[3].

كان المشروع الفرنسي محاط بسرية تامة من طرف السلطات الفرنسية منذ سنة 1951م ولم يكشف عنه إلا أواخر سنة 1958م كمشروع عسكري، ففي نفس العام حدثت عدد من التطورات السياسية دعمت التوجه نحو امتلاك سلاح نووي، خاصة بعد أزمة السويس سنة 1956 م وفشل العدوان الثلاثي على مصر والضغوطات الأمريكية على فرنسا، بعد تهديدات السوفيات للدول المعتدية، فكان امتلاك سلاح ردع بمثابة ضمان لاستقلال قرارها والحد من تبعية للولايات المتحدة الأمريكية، ورد للاعتبار بعد اهتزاز مكانتها كدولة قوية خاصة بعد الضربات التي تلقتها من طرف الثورة الجزائرية.

في نفس العام كان الفرنسيون قد قطعوا أشواطا كبيرة في إنتاج الوقود النووي فأصبحت المفاعلات أكثر إنتاجية بهدف إجراء التجارب، ولم يكد ينقضي العام المذكور حتى أمر رئيس الوزراء "فيليكس غايار" في 11 أفريل 1958م بالانتقال إلى مرحلة تصنيع السلاح النووي واختبار أجهزة التفجير التي تقوم على تحفيز البلوتونيوم بشحنة متفجرة، وازداد اهتمام الساسة والقادة أكثر بتولي الجنرال شارل دو غول رئاسة الجمهورية الخامسة في 21 ديسمبر 1958م، والذي اعتبر من أكبر الداعمين للمشروع فأصدر مرسوما رئاسيا يسمح بإجراء التجارب النووية في منطقة رقان في الصحراء الجزائرية تحت إشراف الجنرال " شارل أيري" " Charles Aillerrt " بصفته المشرف على التجارب النووي في 13 فيفري 1960م تحمل اسم "الجربوع الأزرق" فوق برج ارتفاعه 105 متر بشحنة بلوتونيوم قوتها التفجيرية من 60 إلى 70 كيلو طن[4].

2- التجارب النووية في الصحراء الجزائرية:

في سنة 1957م أنشئ المركز الصحراوي للتجارب العسكرية « Le centre Saharien d'Ex périmentation Militaire » في منطقة رقان وهيئة مقرات التجارب في شكل قواعد عسكرية أشرف عليها ضباط سامون تحت إشراف الجنرال " شارل أيري"، وتم اختيار منطقة رقان لبعدها وغياب مظاهر الحياة فيها من وجهة نظر الفرنسيين ، وشاركت في هذه التجربة عدد من المصالح[5]:

- **القيادة العامة**: ضمت عدد من القادة والضباط والخبراء تحت إشراف الجنرال " شارل إيري".
- **القيادة المشتركة متعددة القوات للأسلحة الخاصة: مهمتها** تحضير للمنشأة للعمل وإجراء التجارب.

- **المجموعة 621 للأسلحة الخاصة: مهمتها** نقل المعدات اللازمة لإجراء التجربة ونشرها في المراكز المحددة مسبقا، وتوفير الأمن الداخلي في المنشآت .
- **كتيبة القيادة والخدمات**: مهمتها التحكم بمصلحة الإشارة والرادار.
- **فرقة الهندسة الصحراوية:** مهمتها إنجاز وبناء المرافق الخاصة بالعمال إنجاز الطرقات.
- **الوحدة التقنية 620**: مهمتها توفير وسائل قياس النشاط الإشعاعي.
- **المصلحة التقنية للوحدات**: تتكون من ثلاث وحدات: الأولى STA/Y مهمتها إنجاز دراسات حول التفجير وقياس النشاط الإشعاعي، كانت منتشرة في مناطق محددة حول منطقة الانفجار، ووحدة STA/Z كانت مهمتها الإشراف على الأسلحة الكيماوية، ووحدة STA/E مهمتها توفير رادار المراقبة لتأمين الطائرات وإبقائها بعيدا عن مجال التفجير.
- **مصلحة مرافق الطيران بالجزائر**: مهمتها بناء المطارات وتجهيزها من برج المراقبة والمدرجات والرادار.
- **كتيبة الصيانة الميكانيكية**: مهمتها صيانة الآليات والمركبات.
- **مصلحة الوقود:** مهمتها توفير الوقود للسيارات والطائرات.
- **مصلحة الطوبوغرافيا:** مهمتها رسم الخرائط وجمع البيانات الخاصة بموقع التجارب.
- **مصلحة الهيدرولوجية:** مهمتها التنقيب عن المياه الجوفية.
- **مصلحة الكهرباء**: مهمتها توفير الطاقة الكهربائية لمختلف المصالح.
- **مصالح إدارية مختلفة:** مهمتها توفير خدمات الإطعام والترفيه والإيواء.

لما اكتمل التحضيرات والترتيبات شرع الفرنسيون في بناء قاعدة لوجستية تبعد من منطقة تفجير حوالي 15كم في منطقة الحمودية في نوفمبر 1958م ولم تنتهي

الأشغال بها من بناء للأنفاق والمراكز والمدرج إلا في سنة 1960م. شارك في بنائها 6500 عامل فرنسي 3500 جزائري كلفوا بالأعمال الشاقة.

بعد اكتمال القاعدة انتظر الفرنسيون الأحوال الجوية المناسبة بعدما نشروا محطات المراقبة و جهزوا عينات التجارب البشرية والحيوانية حول منطقة الانفجار ووضعوا القنبلة في أعلى البرج على ارتفاع 105م، وتم استنفار كافة المصالح للتجربة بعد عدد من التحضيرات، تم تفجير القنبلة على الساعة السابعة وأربع دقائق بتوقيت غرينتش يوم 13 فيفري 1960م بقوة تفجيرية فاقت قنبلتي هيروشيما ونكازاكي مابين 60-70 كيلو طن.

بعد هذا التفجير استمر الفرنسيون في إجراء عدد من التجارب في الفترة الممتدة من التفجير الأول إلى 25 أفريل1961، ففي 01 أفريل 1960م أطلق الفرنسيون التجربة الثانية تحت اسم " الجربوع الأبيض" جنوب موقع التفجير "الجربوع الأزرق" بـ 15 كم على الساعة 06 و17 دقيقة على سطح الأرض بقوة تفجيرية بغت 20 كيلوطن، ثم تلتها تجربة الثالثة " الجربوع الأحمر" في منطقة الحمودية على ارتفاع 100م فوق برج، على الساعة 07 و30 دقيقة ، ثم التجربة الرابعة تحت مسمى " الجربوع الأخضر" بمنطقة رقان فوق برج في 25 أفريل 1961م فاقت قوتها التفجيرية 01 كيلو طن التي تمت على عجل[6].

بعد الاضطرابات السياسية ومحاولة الانقلاب الفاشلة ضد الجنرال ديغول نقلت التجارب إلى منطقة " إيكر" في الهقار 150كم شمال تمنراست، فأجريت عدد من التجارب تحت الأرض، الأولى في 07 نوفمبر 1961م بقوة تفجيرية بلغت 20 كيلو طن، وأخرى مماثلة في 01 ماي 1962م على الساعة 05 دقائق و 02 دقائق بقوة بلغت 20 كيلو طن[7].

3- تداعيات تفجيرات رقان و الهقار على البيئة:

ادعى الفرنسيون أن تجاربهم النووية قد راعت معايير السلامة وفق المعايير الدولية، وأنهم أجروا عدد من الأبحاث لمراعاة الظروف المناخية اللازمة لمنع انتشار السحب المشعة من الانتشار نحو المناطق المأهولة، بل يتم توجيهها نحو عمق الصحراء، وأنها نشرت فعلا عدد محطات في الصحراء وفي عدد من المناطق الجنوبية في الجزائر وفي دول الساحل لمراقبة حركة السحابة الإشعاعية وقياس نسبة الإشعاع، وأن المناطق التي كانت قريبة من الانفجار قد سجلت نسب عالية من الإشعاع لكن كانت خالية من السكان[8].

لقد ادعى الفرنسيون أنهم قد أجروا فحوصات كافية وأن انفجار الجربوع الأزرق لم يسبب تلوث كبير في المياه والنباتات بفعل الغبار المتساقط على المناطق بل بقيت نسب الإشعاع في مستواها الطبيعي وأنها لم تكن تشكل خطرا على الصحة العامة.

لقد أدرك لفرنسيون خطورة تجاربهم النووية في الصحراء وحاولوا تقليد التجارب الأمريكية في صحراء نيفادا تحت الأرض، كما كانوا يتوقعون وصول الغبار الإشعاعي إلى منطقة الساحل لذلك نشروا محطات لرصد نسب الإشعاع في سفراتهم، وهو ما بينه مدير المحافظة الذرية الفرنسية "ايف روكارد " بقوله :" كل الإجراءات التي كنا نأمل تطبيقها في اللحظة صفر فيما يتعلق بقنبلة 13فيفري1960 المسماة بـ " اليربوع الأزرق"، باءت بالفشل ... سحابة مشحونة بعناصر مشعة نتجت عن هذه التجربة الأولى وصلت إلى غاية نيامي وكان نشاطها الإشعاعي أكثر بـ 100000 مرة من معدلها، وتم تسجيل تساقط أمطار سوداء في 16 فيفري بجنوب البرتغال، ثم في اليوم الموالي في اليابان، هذه الأمطار كانت تحمل نشاطا إشعاعيا اكبر بـ 29 مرة من معدلها" [9].

وبذلك يتبين أن الفرنسيين قد فقدوا السيطرة على التفجير الأول ووصلت جزيئات الرمال المشعة إلى أوروبا نفسها في سابقة خطيرة التي حتما تتحول من جزيئات رمل في

الجو تسافر إلى مسافة بعيدة عن مركز التفجير[10] إلى جزيئات مختلطة في التربة تنزل إلى عمق التربة مع تهاطل الأمطار منتقلة بذلك من التربة والمياه السطحية والجوفية إلى النبات ثم الحيوان والإنسان معا[11] مسببة أمراض فتاكة وتشوهات، أي أن المنطقة الملوثة في منطقة رقان وإن إيكر أكبر بكثير مما ظنه الفرنسيون وقد شمل تلوث المياه والسطح والجو في مساحة تزيد عن 600 كم[12].

الغبار الناجم عن تجارب النووية أثر على الثروة الحيوانية والنباتات والمحاصيل بصفة خاصة فلم تعد تنتج، ولعل هذه المؤشرات والملاحظات تؤكد على جزء من الكارثة الكبيرة التي حلت بالمنطقة، إذ أصبحت مناطق من رقان قاحلة وتراجع بها الإنتاج الفلاحي[13]، وتسببت في انقراض أصناف نباتية متنوعة.

4- تداعيات التجارب على المجتمع:

لا شك أن فرنسا قد ارتكبت جرائم في حق المدنين من الجزائريين بأن عرضتهم للإشعاع النووي، وإن حاولت إخفاء هذا الإجرام المخالف للقوانين الدولية بما في ذلك مخالفتها لاتفاقية جينيف الرابعة سنة 1949م التي نصت على حماية المدنين في مناطق النزاع أو محل النشاط العسكري وجعلت منهم عينات للتجارب، بما في ذلك آلاف العمال الجزائريين في المواقع القريبة بالتفجير الذين تركوا بدون وسائل حماية فعالة بعكس ما تحصل عليهم نظرائهم الفرنسيين من معدات تحميهم من آثار الإشعاع مستغلين جهل الجزائريين بالمخاطر التي كانت تتهددهم، لقد حاول الفرنسيون تحسين صورتهم أمام المجتمع الدولي فادعوا سيطرتهم على التجارب وأصروا على قلة المخاطر، لكن قلة خبرتهم في إدارة مثل هذه التجارب سرعان ما انكشفت وظهرت للمجتمع الدولي، وهو ما اتضح فيما بعد في تصريحات وزير الدفاع الفرنسي؛ قائلا: "إن القياسات التي تمت في

نقطة الصفر وحول القنبلة اليربوع الأزرق قد سقطت بسبب قلة خبرة القائمين عليها رغم أنه تم إعدادها جيدا إلا أن حصيلة هذه القياسات ميدانيا كانت جد مؤسفة" [14].

شهادات الفرنسيين على جرائمهم لم تقتصر على القادة فقط بل تعدتها لجنود فرنسيين كانوا في مواقع التجارب، تحدثوا فيها عن الجرائم المنافية لقيم الإنسانية، لقد جعلوا من أسرى جبهة التحرير الوطني عينات بشرية في موقع الانفجار لإعدامهم بصورة مؤلمة شكلت وسمة عار، ولغاية دراسة تأثيرات الإشعاع على الأجسام البشرية، إذ يقول أحد الجنود : " لقد استعملنا سكان المنطقة كفئران مخابر خلال أولى التجارب النووية الفرنسية برقان ".

أثار التجارب المأساوية لم يسلم منها حتى الفرنسيين، لقد عانوا من سرطان النخاع العظمي وأنواع أخرى، لقد وقفوا على حجم الأكاذيب الفرنسية اتجاه جنودها البسطاء، وانتهى بكثير منهم المطاف في المستشفيات يصارعون المرض، وتوفي كثير منهم في شبابهم.

التلوث الإشعاعي لم يكن في الجو فقد بل كان مدفونا في رمال الصحراء في شكل مخلفات نووية، مؤثرة بذلك على الحيوان والإنسان، فقد أشارت بعض الدراسات التي أجريت في تسعينيات القرن العشرين أن الكثير من أهالي رقان القريبين من مناطق التجارب أصيبوا بأنواع مختلف من السرطانات [15].

لقد جرت التجارب النووية على الصحراء الجزائرية المعاناة، حتى أن المناطق التي كانت في دائرة التفجيرات مازالت تعاني وتسجل نسب مرتفعة من السرطانات، حوالي 30 ضعف مما هو عليه في الشمال، بالإضافة إلى التشوهات الخلقية عند الأطفال كصغر الجماجم أو تضخمها، بالإضافة إلى حالات الإجهاض والعقم [16].

خاتمة:

كانت الصحراء الجزائرية صحراء مهمة بالنسبة للسلطة الاستعمارية، فقد مثلت مساحتها مجالا كبيرا لإجراء الاختبارات النووية، التي أرادت من خلالها فرنسا الوصول إلى امتلاك أسلحة نووية على حساب حقوق الجزائريين.

لقد مثلت التجارب النووية في الصحراء الجزائرية لوحدها أبشع الجرائم في حق الأبرياء غير مبالية بحق الإنسان في الحياة، فجعلت من الجزائريين عينات لدراسة التأثيرات الفتاكة للسلاح النووي في الجانب الصحي والبيئي متسببة في قتل آلاف الجزائريين الذين مازالت تحصدهم التجارب النووية. الفرنسية.

رغم المحاولات التي بذلتها السلطات الاستعمارية على الصعيد الدولي لإخفاء إخفاقاتها في حماية المدنيين إلا أنها لم تتمكن بسبب حجم الكوارث التي ألحقتها بالإنسان والبيئة وفشلها في احتواء التلوث الإشعاعي الذي طال غالبية الصحراء، كل هذه الأفعال تسببت في معاناة الآلاف من الجزائريين الذين مازالت تفتك بهم الأمراض الخبيثة الناتجة عن الإشعاع.

---

1 www.nuclearweaponarchive.org/ France/FranceArsenalRecent .html 24/12/2001

2 Ibid.

3 Robert.S, William .M Franch and British Nuclear Forces, Bulletin of the Atomic Scientists, September/October 2000, pp 69-71.

4 www.nuclearweaponarchive.org/ France/FranceArsenalRecent .html 24/12/2001

5 عبد المجيد بوجلة، المشروع النووي الفرنسي، في الجزائر دراسة في الخلفيات، مجلة : دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 10، العدد: 04، ديسمبر 2014م، ص 128- 130.

---

[6] www.nuclearweaponarchive.org/ France/FranceOrigin.html 24/12/2001

[7] Ibid .

[8] Christian BATAILLE, Henri REVOL, Les incidences environnementales et sanitaires des essais nucléaires effectués par la France entre 1960 et 1996 et les éléments de comparaison avec les essais des autres puissances nucléaires, RAPPORTS D'OFFICE PARLEMENTAIRE, Rapport n° 207 (2001-2002), déposé le 6 février 2002.

[9] محمد المهدي بكراوي، وإنصاف بن عمران، البعد القانوني للآثار الصحية والبيئية للتجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية من منظور القانون الدولي الإنساني، مجلة دفاتر السياسة والقانون، الجزائر، العدد الثامن، جانفي 2013، ص 20.

[10] أحمد المهدي، الحماية القانونية للبيئة ودفوع البراءة الخاصة بها، دار الفكر و القانون للنشر والتوزيع، المنصورة، 2006م، ص 148.

[11] علي سعيدان، حماية البيئة من التلوث بالمواد الإشعاعية والكيماوية في القانون الجزائري، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 2008م، ص36.

[12] نفسه، ص 47.

[13] علي ياحي، الإرث النووي الفرنسي في صحراء الجزائر، مجلة البيئة والتنمية، مج 19، العدد 198 – 199، سبتمبر – أكتوبر 2014م، ص 30.

[14] نبيل بوساق، عبد الرحيم مقداش، " تعويض ضحايا التجارب النووية الفرنسية في الجزائر في ظل قانون موران"، مجلة البحوث القانونية، والاقتصادية، المركز الجامعي بأفلو، المجلد الأول، العدد الأول، ص 04.

[15] نفسه، ص 9.

[16] بلعروسي عبد الفتاح، الجرائم النووية الفرنسية في رقان، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تخصص تاريخ حديث ومعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2015 – 2016م ، ص 84- 91.

إيديولوجية التحديث السان سيمونية وتأثيرها على السياسات الاستعمارية في الجزائر

قراءة ما بعد كولونيالية في كتاب استعمار الجزائر لبروسبير أنفانتان

The Saint-Simonian Ideology of Modernization and its Impact on Colonial Policies in Algeria
A Postcolonial Reading of Colonization of Algeria by Prosper Enfantinia

نادية الرياحي
*

جامعة تونس/ الجمهورية التونسية

Riahinadia2020@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/12/26	2025/01/13	2025/01/31

الملخص:

تتناول هذه الدراسة دور أتباع الفيلسوف الاجتماعي سان سيمون في صياغة الخطابات والسياسات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، من خلال تحليل تأثير إيديولوجية التحديث السان سيمونية على التنظير لفكرة الاستعمار الاستيطاني بأبعاده الاقتصادية الرأسمالية، والتي تتعلّق بتغيير نظام الملكية والاستحواذ على ثروات الجزائر. في هذا السياق، تعد مؤلفات بروسبير أنفانتان، خليفة سان سيمون، محورا رئيسيا في بلورة هذه السياسات الاستعمارية. تعتمد الدراسة على منهج تحليل الخطاب والنقد ما بعد الكولونيالي لفهم الديناميكيات المعقدة التي تحكم العلاقات الاستعمارية وكشف الآليات التي استخدمت لتبرير التمييز العرقي والطبقي المتأصل في المشروع الاستعماري وذلك في كتاب استعمار الجزائر. كما تستكشف الدراسة الإشكاليات الجوهرية المتعلقة بعلاقة الأنا بالآخر، والشرق بالغرب، والهامش بالمركز، والمستعمَر بالمستعمر، بهدف تقديم فهم أعمق لكيفية تأثير هذه العلاقات على تشكيل السياسات الاستعمارية.

---

* المؤلف المرسل

الكلمات المفتاحية: سان سيمون ؛ السان سيمونية ؛ الجزائر ؛كتاب استعمار الجزائر ؛ بروسبير أنفانتان.

Abstract:
This study examines the role of the disciples of the social philosopher Saint-Simon in shaping French colonial discourses and policies in Algeria. It analyzes the impact of Saint-Simonian modernization ideology on the theorization of settler colonialism with its capitalist economic dimensions, which involve altering the property system and seizing Algeria's wealth. In this context, the works of Prosper Enfantin, Saint-Simon's successor, are considered pivotal in shaping these colonial policies. The study employs discourse analysis and post-colonial critique methodol-ogies to understand the complex dynamics governing colonial relations and to uncover the mechanisms used to justify the inherent racial and class dis-crimination in the colonial project, as reflected in "Colonization of Alge-ria." Additionally, the study explores fundamental issues related to the relationship between the self and the other, the East and the West, the margin and the center, and the colonized and the colonizer, aiming to pro-vide a deeper understanding of how these relationships influenced the formation of colonial policies.
Key words: Saint-Simon Algeria; Colonization of Algeria; Prosper Enfantin.

مقدمة:

تتناول هذه الدراسة دور أتباع المفكر الاجتماعي سان سيمون في تشكيل السياسات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، وخاصة في التنظير لفكرة الاستعمار الاستيطاني في أبعاده الاقتصادية الرأسمالية المتصلة بتغيير نظام الملكية والاستحواذ على ثروات الجزائر ومقدراتها. في هذا السياق، تعدّ مؤلفات بروسبير أنفانتان[1]، خليفة سان سيمون، محورا رئيسيا في بلورة هذه السياسات الاستعمارية، وذلك خاصة في كتابه **استعمار الجزائر**. تساهم هذه الدراسة في فهم السياقات التاريخية والاجتماعية التي ساعدت في تعزيز الفكر الاستعماري الفرنسي للجزائر، وتسلّط الضوء على العلاقة بين النظريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسات الاستعمارية في طرح أتباع سان سيمون.

بعد فشل السان سيمونيين في إقناع محمد علي باشا بشق قناة السويس، التي اعتبروها محور عملهم في مصر وهدف وجودهم في الشرق، انتقلوا إلى الجزائر التي كانت قد استعمرت حديثا من قبل فرنسا[2]. في الجزائر طبّق السان سيمونيون أفكارهم ومعارفهم، ورأوا في البلاد ورشة عمل كبيرة تمكنّهم من دعم المشاريع ذات الطابع الرأسمالي والمشاركة في بناء النظام الاستعماري[3]. ولكن هذه المشاريع لم تر النور إلا بعد نجاح الغزو العسكري في توطين أركانه والاستيلاء على أراضي الوقف ومصادرة ممتلكات الجزائريين. وبذلك، أصبح العديد من السان سيمونيين، الذين كانوا يتطلّعون إلى فكرة الإنسانية العالمية وتحقيق العدالة الاجتماعية، من أبرز المدافعين عن الاستعمار هناك. وقد تمّ كل ذلك تحت مظلّة "المهمة الحضارية" التي رفعت فرنسا شعارها، في كل مشاريعها الاستعمارية منذ الحملة الفرنسية على مصر وصولا إلى استعمار الجزائر[4].

في الواقع، يعود قطع المدرسة السان سيمونية مع المبادئ الإنسانية والوحدوية والانخراط في المشاريع الصناعية الرأسمالية الكبرى إلى سنة 1832، عندما انقسمت المدرسة السان سيمونية إلى شقين: الشقّ الاشتراكي الطوباوي بقيادة أرمان بازار، الذي ظلّ مخلصا للأهداف الاجتماعية للمدرسة، والشق التكنوقراطي الليبرالي بقيادة بروسبير أنفانتان وميشال شوفالييه، اللذين دعما الرأسمالية. بهذا، أصبحت اليوتوبيا التكنولوجية والاقتصادية تحتلّ الصدارة في المدرسة السان سيمونية، متجاوزة اليوتوبيا الاجتماعية والفلسفية التي كانت تسعى إلى تحقيق فكرة الوحدة الكونية[5].

فرض كل من بروسبير أنفانتان وميشال شوفالييه[6] تغييرا جوهريا في توجّه المدرسة السان سيمونية من الدعوة إلى الاشتراكية نحو الانخراط في المشاريع الرأسمالية الكبرى من حيث التخطيط والتمويل والتنفيذ. جاء هذا التحوّل عندما حلت المصالح الاقتصادية الرأسمالية، التي تهدف إلى تحقيق أقصى قدر من الأرباح، محلّ الأفكار الاشتراكية التي كانت تسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية[7]. وقد استفادوا من خبراتهم في التنظيم والإعداد كمهندسين

أو مصرفيين[8]، بالإضافة إلى التنظير والتخطيط الذي اكتسبوه خلال تجربتهم الروحية في مونليمونتان[9].

تجلّى هذا التحوّل الجذري في مواقف أتباع سان سيمون من خلال انخراطهم في تبرير الاستعمار خاصة خلال تجربة الجزائر، فبعد أن كانوا من أبرز منظري الوحدة العالمية ومشاريع السلام والمساواة بين الأجناس والأعراق، تحوّل عدد كبير منهم، عقب فشل مهمات التبشير بالمذهب السان سيموني والابتعاد عن النزعة الاشتراكية منذ نهاية سنة 1832، نحو الرأسمالية التي شهدت ذروتها آنذاك.

تهدف هذه الدراسة عامة إلى استكشاف انحرافات الفكر السان سيموني في الجزائر عن مبادئه النظرية المتصلّة بتحقيق الوحدة العالمية والعدالة الاجتماعية نحو دعم الاستعمار والامبريالية والرأسمالية. ومن ثمّ تدور إشكالية الدراسة حول المناقشات الراهنة حول تحوّل وجهة المدرسة وتنكرها لأهدافها الإنسانية، مثل حلم الوحدة بين الشرق والغرب وتحقيق العدالة في المجتمعات الحديثة، وخاصة بعد انخراطها في تجربة الاستعمار في الجزائر. كما تبحث في أسباب هذا التحوّل الذي طال معظم أتباع المدرسة، واتجاههم نحو دعم المشاريع الرأسمالية القائمة على نهب ثروات الشعوب واقتسام خيرات الكون، ولاسيما في توجيه السياسات الفرنسية في الجزائر خلال القرن التاسع عشر.

تركز هذه الدراسة خاصة على أدوار الأب بروسبير أنفانتان الذي يعتبر من الشخصيات البارزة في التنظير للاستعمار الفرنسي وفي تشكيل السياسات والإيديولوجيات الاستعمارية، والذي كان عضوا نشطا في اللجنة العلمية لاستكشاف الجزائر، والذي قام بوضع المخططات و تأليف الكتب وإعداد التقارير وأسهم في المشاريع المتعلقة باستغلال الأراضي الجزائرية، وقد جمع أفكاره في كتابه **"استعمار الجزائر"**.

فما هو دور السان سيمونيين في دعم الاستعمار الاستيطاني، وكيف ساهم بروسبير أنفانتان في التنظير للتوسع الاستعماري وتعزيزه في الجزائر من خلال نظام الملكية الذي اقترحه في كتابه **استعمار الجزائر**؟

تعتمد الدراسة على منهجية تحليل الخطاب الاستعماري من خلال كتاب **استعمار الجزائر**، مستندة إلى نظرية ما بعد الكولونيالية التي تستكشف مجموعة من الإشكاليات الجوهرية المتعلقة بعلاقة الأنا بالآخر، والشرق بالغرب، والهامش بالمركز، والمستعمَر بالمستعمر. يهدف هذا التحليل إلى كشف النقاب عن الخطاب الاستعماري وتفكيك مقولاته المركزية التي تعكس التمييز العرقي والطبقي من خلال تفكيك نظام الملكية الذي اقترحه أنفانتان وتحليل أبعاده المختلفة.

01- دور أتباع سان سيمون في تعزيز المشاريع الاستعمارية بالجزائر:

يرى السان سيمونيون في الشرق مجالا مثاليا لتطبيق فكرة الوحدة الإنسانية وإطارا مناسبا لإنجاز المشاريع الصناعية الكبرى التي حلموا بها، هم وأستاذهم[10]. ففي الفلسفة السان سيمونية، تمثّل ثنائية الشرق والغرب رمزية المادة والروح، حيث يُعتبر توحيدهما تجسيدا لتكامل هذين العنصرين المادة والروح والعلم والصناعة[11]. اعتقد الأب بروسبير أنفانتان، الذي تولّى رئاسة المدرسة منذ سنة 1825، أنّ الشرق سيمنح الغرب البعد الروحي، بينما سيؤمن الغرب الجانب التقني والعلمي. وبهذا، فإنّ اتحاد الروح والمادة، والنظرية والتطبيق، يهدفان إلى تحقيق الوحدة الإنسانية وإحلال السلام.

كما تفرض فكرة التقدم، التي ترتكز عليها الفلسفة السان سيمونية، قانون الانسجام بين عالمي المادة والروح، أي بين الشرق والغرب. لذلك، كان أتباع المدرسة يعتقدون أن المصالحة الروحية بين هذين العالمين ستؤدي إلى تغيير الحياة المادية في الكون نحو الوحدة

والسلام والتقدم[12]. وفي هذا الصدد يقول أنفانتان: "... أي مشهد ستصنعه الإنسانية على ضفاف المتوسط عندما يتحقق التواصل السلمي بين أوروبا وإفريقيا وآسيا بدلا عن الصراع وسفك الدماء ...سيكون مشهد اكتمال الوحدة الإنسانية رائعا..."[13].

كان للأتباع اهتمام مزدوج بالشرق، حيث سعوا من جهة لتطبيق الفلسفة الصناعية بأبعادها العالمية، ومن جهة أخرى، اعتُبر الشرق قيمة رمزية في الفكر السان سيموني ورمزا لـ "نداء المرأة". بينما يمثل الغرب العالم الذكوري، حيث يجمع بينهما البحر الأبيض المتوسط. وقد أشار ميشال شوفالييه إلى هذه الفكرة في صحيفة الجلوب Le Globe، الصحيفة الناطقة بلسان السان سيمونيين حين قال: "...سيصبح المتوسط محور شبكة من الاتصالات بين الشعوب... وسيكون بمثابة فراش يجمع الشرق والغرب."[14]. ومن ثمّ بدأ بروسبير أنفانتان بتوجيه دعوة إلى أتباعه المخلصين للتوجه نحو الشرق بهدف توحيد نصفي العالم الغربي والشرقي عبر شق قناة السويس. سعى الأتباع لتحقيق حلم أنفانتان، وكان الكاتب إيميل بارو Emile Barrault الأكثر حماسا لهذا المشروع، خاصة أنّه سبق له أن تناول الدور الذي يمكن أن يلعبه السان سيمونيون في تحقيق المصالحة بين الشرق والغرب، قائلا: : "... علينا اليوم العمل على توحيد الشرق والغرب هذا الثنائي القديم المتكوّن من المادة والروح..."[15]. هكذا إذن توجه السان سيمونيون إلى مصر وانخرطوا في تجربة محمد علي باشا التحديثية ولكن مغامرتهم لم تستمر طويلا بعد فشلهم في إقناع والي مصر بشقّ قناة السويس التي اعتبروها جوهر عملهم في الشرق وحلقة الوصل بينه وبين والغرب لذلك انتقلوا إلى الجزائر التي كانت قد استعمرت سنة 1830[16].

ترتبط معرفة السان سيمونيين بالجزائر بتجارب مبكرة سابقة على الاحتلال الفرنسي سنة 1830، من خلال الأب بروسبير أنفانتان، الذي تولى قيادة التنظيم بعد وفاة سان سيمون. في رحلات شبابه، قام أنفانتان بزيارة الجزائر بين سنوات 1816 و1821. وقد

أشار في رسالة بعث بها إلى وزير الحربية الفرنسي في سنة 1843 إلى معرفته العميقة بالجزائر، قائلاً: "لقد زرت الجزائر وقطنت بها خمس سنوات في شبابي"[17]. ومع ذلك، لم يتجلّ اهتمام السان سيمونيين بالجزائر إلا بعد فشل مشروعهم في مصر، مما دفعهم للبحث عن فرص جديدة لتحقيق أفكارهم في هذا البلد[18].

بعد احتلال الجزائر سنة 1830، بدأت الإدارة الفرنسية في التفكير في أفضل السبل لترسيخ دعائم الاستعمار، وذلك من خلال تشجيع الهجرة الاستيطانية لبناء قاعدة ديموغرافية[19]. وكانت البرجوازية الفرنسية ترى أنّ احتلال الجزائر سيوفر لها أرباحا طائلة، إذ يمكن أن تصبح سوقا لبضائعها وموردا مهما للمواد الأولية، مما يساعدها على تعزيز اقتصادها وتصدير منتجاتها التي تكدست بعد الثورة الصناعية[20].

وجدت هذه الأفكار صدى في كتابات السان سيمونيين خلال تلك الفترة، حيث أشار الجنرال السان سيموني توماس روبار بيقو إلى أنّ الجزائر يجب أن تكون "ولأطول مدة ممكنة، سوقا لرواج المنتجات الصناعية الفرنسية، كما أنّها قادرة على تزويدنا بكميات هائلة من المواد الأولية، وخاصة المواد الطاقية اللازمة لدفع عجلة التصنيع[21].." بهذا، شكّلت رؤية السان سيمونيين عن الجزائر نقطة انطلاق جديدة لتعزيز استراتيجيات الاستعمار الفرنسي.

كان الجرّاح أوغست ورنيه والجنرال ليون دو لامورسيار من أوائل السان سيمونيين الذين التحقوا بالجزائر بعد احتلالها مباشرة سنة 1830. وقد كان هؤلاء يتلقون من ميشال شوفالييه بعض الأعداد من صحيفة الجلوب. ثم وصل إلى الجزائر مجموعة من الشخصيات البارزة، بما في ذلك الصحفي ألكسندر ماسول Alexandre Massol وعازف البيانو دومينيك روجيه Dominique Rogé والصحفي مويز ريتوريه Moise Retouret

والقانوني إدموند كومب Edmond Combes وكاتب العدل ومستشار الأعمال بابتيست ديتار Baptiste Dutard[22].

وابتداء من سنة 1833، تولى عدد من أتباع سان سيمون عدة مناصب في الجزائر، وخاصة في المكاتب العربية التي أنشأها نابليون الثالث، مما أتاح لهم الانخراط في مجموعة من المشاريع الرأسمالية الكبرى. وبذلك، أصبحت مساهماتهم جزءا من الجهود الأوسع لتعزيز الاستعمار الفرنسي وتطوير الاقتصاد الكولونيالي [23].

بعد القطع مع النزعة الاشتراكية، انخرط معظم السان سيمونيين في الجزائر في المشاريع الصناعية والاستثمارات، خاصة بعد فشل مهماتهم في التبشير بالمذهب[24]. وقد اعتبر لوي أوغست بلانكيLouis Auguste Blanqui، السياسي الفرنسي والجمهوري الاشتراكي المعارض، أنّ السان سيمونيين أصبحوا من أبرز دعاة دعم رؤوس الأموال بعد ابتعادهم عن الأفكار الاشتراكية، حيث أولوا أهمية كبيرة للاقتصاد[25]. بهذا، يظهر التحول الفكري لدى السان سيمونيين من التركيز على العدالة الاجتماعية إلى الانخراط في المجالات الاقتصادية والرأسمالية، مما يعكس التغيرات الجذرية في إستراتيجياتهم وأهدافهم.

انخرط بعض السان سيمونيين في الجيش الفرنسي، وقادوا عدة معارك ضد المقاومة الجزائرية[26]. من بين هؤلاء القادة العسكريين كان ليون دو لامورسيار Léon de Lamoricière، الذي عيّن حاكما على منطقة الغرب الجزائري. حاول لامورسيار، كفيلسوف سان سيموني، الدفاع عن فكرة ربط الجزائر بفرنسا والشرق بالغرب، مُبررا الاستعمار، من خلال اعتباره أنّ الحرب ضرورية في البلدان البربرية، لكنها يجب أن تُعتبر وسيلة وليس هدفاً. يقول في هذا الصدد: "... من أجل تحقيق هذا الهدف، لا بدّ من الاستعانة بالمعمرين الأوروبيين، لأنّنا لا نستطيع أن نثق بالأهالي بشكل كامل. فهؤلاء سيغتنمون أول فرصة للثورة ضدنا... إنّ إخضاع العرب لسلطتنا هو مرحلة انتقالية ضرورية

بين حرب الاحتلال وتأسيس المستوطنات... والشيء الوحيد الذي يجعلنا نأمل في تثبيت أقدامنا في الجزائر هو إسكان البلاد بمعمرين مسيحيين يمارسون الزراعة... ولهذا يجب أن نبذل جميع المساعي لترغيب أكبر عدد ممكن من المعمرين في المجيء فوراً إلى الجزائر، وتشجيعهم على البقاء فيها من خلال تخصيص الأراضي لهم فور وصولهم."[27]...ومن ثمّ بادرت مجموعة من السان سيمونيين بتعزيز الاستيطان الرأسمالي في الجزائر من خلال الاستحواذ على الأراضي. كان من بين هؤلاء رجال الأعمال آرليس ديفور، الذي اشترى ضيعتين في منطقة متيتجة لابنه أرمان ديفو[28].

بالإضافة إلى ذلك، اتجه اهتمام السان سيمونيين نحو تطوير شبكات السكك الحديدية واستغلال مناجم الحديد، فضلاً عن الاستثمار في مشاريع زراعية كبرى، مما جعلهم من أبرز المستثمرين الرأسماليين في البلاد[29]. في هذا السياق، تحدث الكاتب إيميل بيرير في صحيفة "الوطن" بتاريخ 25 أوت 1833 عن أهمية إنشاء سكك حديدية تربط بين مختلف مدن الجزائر، وتنظيم رحلات بحرية بين موانئ مرسيليا والجزائر. وقد اقترح إنشاء خطوط حديدية تمتد من الجزائر إلى وهران، ومن عنابة إلى قسنطينة، لتسهيل نقل الثروات الطبيعية، وخاصة موارد الطاقة المكتشفة حديثا، إلى المدن والموانئ الفرنسية[30].

ولتحقيق هذه الأهداف، ساهم المهندس بولان تالابو في تأسيس شركة السكك الحديدية الجزائرية والشركة العامة الجزائرية في 31 أوت 1864. كما شارك المهندسان السان سيمونيان، جون براكس وبولان تالابو، في تنفيذ مشاريع كبرى للأشغال العامة، مثل إنشاء الموانئ والطرق وشبكات السكك الحديدية. وقد حصلوا على صفقات لتنفيذ العديد من هذه المشاريع، حيث نال بولان تالابو صفقة إنشاء خط الجزائر- البليدة[31]وفي سنة 1863 حصل على مشروع إنشاء خط الجزائر-وهران. بفضل هذه الأنشطة، استحوذ بولان تالابو على استغلال جميع خطوط السكك الحديدية في الجزائر، وقام في سنة 1865

بتهيئة الموانئ الجزائرية لاستقبال السفن الكبرى، بعد أن أسّس الشركة العامة للنقل البحري في نفس السنة تمهيدا لنهب ثروات البلد ونقلها إلى المركز [32].

لتجسيد المشروع السان سيموني في الجزائر، اقترح السان سيمونيون أن تحتفظ فرنسا بالجزائر مع توسيع دائرة الاحتلال لتشمل مختلف المناطق، على أن يكون هذا الاحتلال أوروبيا ومسيحيا وتحت السيطرة الفرنسية[33].. كان الهدف هو أن تكون الهجرة إلى الجزائر أوروبية، مما يتيح بناء مجتمع استيطاني أوروبي تحت مظلة الاستعمار[34].

في هذا الإطار، قدّم السان سيمونيون عدّة مشاريع، مثل إنشاء المدارس والمعاهد، وتطوير شبكات المواصلات والسكك الحديدية، بما في ذلك الخط الاستراتيجي قسنطينة-تلمسان الذي امتد إلى عنابة وربط الجزائر بوهران. بالإضافة إلى ذلك، شملت المشاريع تأسيس مدن فلاحية واستغلال المناجم واستكشاف الصحراء[35]. كما تم إنشاء الخط البحري مرسيليا-الجزائر، وإعلان مبدأ الموانئ الحرة، وإلغاء الحواجز الجمركية لمراقبة السلع الأجنبية[36]، فضلاً عن تأسيس الشركات واستغلال الثروات الطبيعية وتهيئة الجسور.

ومع ذلك، كان تنفيذ هذه المشاريع يتطلّب الاستيلاء على أكبر عدد ممكن من الممتلكات والأراضي. اعتقد السان سيمونيون أن الأراضي في الجزائر ليست ملكا لأحد، حيث كانوا يرون أنّ الملكية الخاصة توجد فقط في المدن وأحوازها، بينما لم تكن الأرض خارجها مملوكة لأي كان. حتى الأرض المشاع لم تكن تعتبر مملوكة لشيوخ القبائل أو للباي أو الداي، ولم يكن هناك مفهوم للملكية الجماعية للأرض بالمفهوم المتعارف عليه. هذا الأمر أتاح لسلطة الاحتلال الاستيلاء على الأراضي الزراعية لصالح المشروع الاستعماري الاستيطاني[37].

وقد لعب الأب أنفانتان دورا كبيرا في صياغة السياسات المتعلّقة بتوزيع الأراضي الفلاحية بين المستوطنين والسكان الأصليين. تجلّى ذلك من خلال عمله في اللجنة

الاستكشافية في الجزائر، بالإضافة إلى كتابه استعمار الجزائر، حيث تناول فيه قضايا الملكية وأهمية إعادة تنظيم توزيع الأراضي لضمان نجاح المشروع الاستعماري من خلال تطوير نظام جديد للملكية بالجزائر.

02-إسهامات أنفانتان في التنظير لنظام ملكية مستحدث بالجزائر:

على الرغم من أنّ أنفانتان تعرّف على الجزائر في وقت مبكر، إلا أنّ اهتمامه بها ازداد بشكل ملحوظ عندما استقرّ بها سنة 1839 حين تمّ اختياره كعضو في اللجنة العلمية الاستكشافية التي أنشأتها الحكومة الفرنسية[38]. وقد جاء ذلك بعد نجاح رجل الأعمال السان سيموني آرليس ديفور Arlès Dufour في إقناع الحكومة بمنح أنفانتان فرصة "منفى شرقي"، مما أدّى إلى انضمامه للجنة في 18 أوت 1839[39].

تعدّدت الأسباب التي دفعت الحكومة الفرنسية لإرسال اللجنة العلمية إلى الجزائر لجمع المعلومات حول الوضع الراهن ومستقبل البلاد. من بين هذه الأسباب، كانت المناقشات الحادة في البرلمان بشأن تخصيص ميزانية لمواصلة الحرب في الجزائر، بالإضافة إلى الحملة التي قادها بعض الجزائريين المنفيين، وخاصة حمدان خوجة، ضدّ تصرفات الإدارة الفرنسية. كما أنّ ضغط الرأي العام الأوروبي على فرنسا كان له دور كبير في حثها على الإعلان عن موقفها الرسمي إزاء احتفاظها بالجزائر أو تخليها عنها[40].

جدير بالذكر أنّ الحكومة الفرنسية زوّدت اللجنة العلمية بتعليمات محدّدة تتعلق بالنقاط التي ترغب في التعرّف عليها، وطالبتها بإيجاد حلول للمشكلات المهمة التي كانت تواجه الجزائر. كما قدّمت للجنة "برنامج عمل" مفصل يسيرون وفقه. ومن السهل استنتاج أنّ التعليمات والبرامج تشير إلى أنّ الحكومة كانت قد حدّدت مسبقا مصير الجزائر، وأنّ إرسال اللجنة كان مجرد محاولة لتبرير سياساتها الاستعمارية[41].

تضمّنت التعليمات التي سلمتها الحكومة إلى اللجنة العلمية الاستكشافية في الجزائر 24 صفحة تحتوي على مجموعة من الأسئلة التي كان يتعيّن على اللجنة الإجابة عليها. من بين هذه الأسئلة: هل يجب على فرنسا الاحتفاظ بالجزائر أم التخلي عنها، وفي كلا الحالتين، ما الفائدة التي تعود على فرنسا؟ وما هي طريقة العمل إذا كان الاحتفاظ هو الحل المقترح، وما الوسائل التي ينبغي على الحكومة استخدامها لتنفيذ هذا الاقتراح؟

كما اقتضت التعليمات أن توضّح اللجنة جميع جوانب الوضع الراهن في الجزائر[42]، بما في ذلك وصف مفص| ل لحالة وطبقات السكان الجزائريين وحالة الأراضي. يُلاحظ أنّ التعليمات تميل إلى دعم الرأي القائل بالاحتفاظ بالجزائر، مما يوحي بأنّ مهمة اللجنة كانت البحث عن وسائل لتعزيز الاحتفاظ بالجزائر استنادا إلى تجارب السنوات السابقة، وليس فقط الإجابة على مسألة ما إذا كان الاحتفاظ جائزا أو ممكنا[43].

وصلت اللجنة إلى الجزائر في 24 ديسمبر 1839، حيث تم تكليف أنفانتان بدراسة المسائل التاريخية والإثنوغرافية، بالإضافة إلى العادات والتقاليد والمؤسسات الجزائرية[44]. قضى أنفانتان 22 شهرا (1839-1841) في استكشاف المجتمع الجزائري، مستفيدا من رحلاته إلى قسنطينة وعنابة ومناطق صحراوية أخرى، مما أتاح له التعمق في فهم البيئة الثقافية والاجتماعية الجزائرية[45]. ومن ثمّ اقترح أفضل السبل لبسط نفوذ الاستعمار وخدمة المصالح الفرنسية.

مكنّت هذه الملاحظات والدراسات الإدارة الاستعمارية من وضع برنامج سياسي وإداري للتعامل مع السكان، بهدف تفادي الانتفاضات المتكررة، مما أدّى إلى إنشاء المكاتب العربية في 12 فبراير 1844 [46]. جاءت هذه المكاتب نتيجة للأبحاث التي أجرتها اللجنة في مجال الإثنوغرافيا، حيث قدّم الباحثون اقتراحات بشأن النظام الضريبي المتبع في الجزائر، مستندين إلى دراسة قام بها بيرون. كما تناولت الأبحاث جوانب المناخ والمعادن

والثروات، بالإضافة إلى مجالات الطب والصحة، حيث سُوّقت مشاريع تظهر الجزائر كمنطقة غنية وليست مستنقعا للأمراض والموت كما أشيع سابقا.

تميّز نشاط اللجنة بطرح إيديولوجية استعمارية قائمة على تفوّق الرجل الأوروبي، وركزّت استراتيجياتها على هدم مقومات الأمة الجزائرية، مثل الدين الإسلامي واللغة العربية. وقد قدّم رواد المدرسة الاستعمارية ومؤرخوها فرضيات وحجج لمستقبل "جزائر المستوطنين". من جانبها، سعت الإدارة الاستعمارية إلى إضفاء الطابع الشرعي على الاحتلال من خلال تقديم الدعم المادي لتلك الأبحاث والدراسات، والإشراف على إنجازها ونشر مؤلفاتها، مما تطلب تخصيص ميزانيات ضخمة لذلك.

تجاوز اهتمام أنفانتان المجال الأكاديمي، إذ درس السمات التي قد تجعل الجزائريين مؤهلين لتقبّل الاستعمار، وهو ما أشار إليه المفكر مالك بن نبي بعبارة "القابلية للاستعمار"[47]. كما اهتم بنظام الملكية والعادات والتقاليد والدين، مقارنة بالأنظمة المماثلة في الثقافات الأخرى، ساعيا لوضع أسس تدعمّ الاحتلال الفرنسي وفق النموذج السان سيموني. ظلّ بروسبير أنفانتان في الجزائر حتى اضطر للعودة إلى باريس سنة 1843 بسبب أزمة صحية. وقد جمع أفكاره حول الاحتلال في مذكرة أرسلها إلى وزير الحربية في 18 فيفري 1843[48]. مشيرا إلى أنّه الشخص الأنسب لتنفيذ تلك الأفكار. تحوّلت هذه المذكرة لاحقا إلى كتاب بعنوان استعمار الجزائر La Colonisation de l'Algérie، الذي صدر في باريس في نفس السنة.

بعد نشر هذا الكتاب، أصبح أنفانتان قائد تيار الجزائر-فرنسية، حيث وضع فيه أسس السياسة الاستعمارية اللازمة في الجزائر[49]. بهذا التحوّل، انتقل أنفانتان من دعوته إلى الوحدة العالمية والسلام بين الشعوب إلى التأكيد على ضرورة الاستعمار، تحت مبرّر حمل المدنية والتنوير إلى الشرق.لاحظ أنفانتان أنّ الجزائر تمتلك عوامل مؤهلة لنجاح المشروع

السان سيموني، الذي يسعى لربط العالم الغربي بالعالم الإسلامي، وتحقيق وحدة فكرية واقتصادية وجغرافية بينهما[50]. وقد صرّح قائلا: "الجزائر هي مكان تجربة هذا التنظيم الجديد الذي نريد تحقيقه هنا، ونعمل جاهدين على تجاوز العقبات التي تعيق مشاريعنا القديمة"[51]. من هنا، لعب أنفانتان دورا حيويا في تعزيز الاستيطان الأوروبي تحت السيطرة الفرنسية، من خلال إدماج المجتمع الجزائري في النسيج الأوروبي. سعى لتوجيه الفكر والثقافة من خلال السيطرة على المدارس، وأيضا توجيه الاقتصاد عبر إنشاء القرى الزراعية واستغلال المناجم، عبر تطوير شبكات المواصلات والسكك الحديدية[52].

كان أنفانتان يرى أنّ الهدف الأسمى للإدارة الفرنسية هو تشجيع استقدام أكبر عدد ممكن من المستعمرين الأوروبيين، معتقدا أنّ نجاح التجربة الاستعمارية في الجزائر يعتمد على ذلك. ومع ذلك، سعى لتبرير التوسع الاستعماري من خلال الادعاء بأنّ هذا التوسع سيؤدي إلى تحقيق مشاريع رأسمالية وتعزيز النمو الاقتصادي[53]. كما قال: "إنّ استقدام جاليات فلاحية وصناعية وتجارية وفنية وعلمية هو الحلّ الأمثل لبناء الحضارة في الجزائر ونجاح التجربة الاستعمارية."[54] انخرط أنفانتان في تبرير هذه السياسة الاستيطانية، مقترحا أن يتمّ تمدين السكان الأصليين من خلال اتصالهم غير المباشر بالمستوطنين، معتبرا أنّ هذا الاتصال سيكون كافيا لخلق حضارة جديدة ومجتمع حديث في الجزائر[55].

حمل كتاب أنفانتان تنظيرا لمشكلة الملكية في الجزائر، حيث اعتبر أنّ الملكية هي القاعدة المادية للنمط الاجتماعي[56]. كان يسعى من خلال هذا التنظير إلى إخضاع الأراضي الجزائرية للاحتلال، سواء من خلال تنظيم المهاجرين الأوروبيين أو عبر التحكم في توزيع الأراضي بين الأهالي، معبّرا عن عدم رضاه عن السياسة الاستعمارية المتبعة[57].

اعتبر أنفانتان أنّ المشروع الذي قدّمه في كتابه "استعمار الجزائر" يمثّل رؤية جديدة في مجال التنظير الاستعماري، حيث رأى أنّ مفهوم الملكية يجب أن يتطور ليعكس التغيرات

العالمية، بما في ذلك في فرنسا. وهدف هذا التطور، كما يقول، هو القضاء على الأشكال القديمة للملكية. وأضاف: "إنّ طريقنا للتملّك فريد على مستوى الكرة الأرضية، وحتى في أوروبا، وهو مفيد لكل زمان ومكان ولكل شعب، وخاصة فرنسا، من خلال تحقيق مصالحها عبر السيطرة على العقارات ووسائل الإنتاج" [58].

رأى أنفانتان أنّ الجزائر تشكّل البيئة المثالية لتطبيق تجاربه، حيث اعتبرها "مكان تجريب هذا التنظيم الجديد الذي نريد تحقيقه، وسنعمل جاهدين على تحقيق ذلك باستبعاد العقبات"[59].. ووفقا لرؤيته، كان الحفاظ على الجزائر يستلزم تمكين الإدارة الفرنسية من الحكم وتسهيل العمل، قائلا: "يجب علينا بذل المستحيل لتأسيس قرى أوروبية في الجزائر وإدارتها."[60].

كانت هذه الإدارة تهدف إلى إنشاء مستوطنات عسكرية ومدنية من خلال تغيير عادات السكان المحليين وتعديل القوانين الفرنسية، بالإضافة إلى تعزيز مستوى تعليم الأهالي وتحديثهم، بشرط أن تكون هذه الجهود في خدمة المشروع الاستعماري. كما دعا إلى تأسيس ملكية فردية للأراضي الزراعية لبناء مجتمع أوروبي استيطاني، مشدّدا على أهمية الهجرة الأوروبية، خاصة من الألمان والإيرلنديين، مع التأكيد على أنّ الاستعمار يجب أن يكون فرنسيا خالصا. فقد أشار أنفانتان إلى أنّ الجزائر شهدت تاريخيا تعاقب شعوب مختلفة مثل الرومان والوندال والعرب، الذين تركوا آثارهم وامتزجوا مع السكان الأصليين[61].. وخلص إلى أنّ المستوطنات يجب أن تكون من الشعوب الأوروبية، مؤكداً: "إنّ احتلال الجزائر يجب أن يكون أوروبيا مسيحيا وليس فرنسيا بحتا، شريطة أن يتمّ ذلك تحت السيطرة الفرنسية"[62].

اقترح أنفانتان في كتابه استعمار الجزائر سياسة التماثل L'Assimilation والقائمة على إحداث مؤسسات مماثلة للإدارات والمؤسسات الفرنسية دون الأخذ بعين الاعتبار

اختلاف الخصوصيات السوسيوثقافية التي تنفرد بها الجزائر وإحلال التشريعات الفرنسية محلّ التشريعات المحلية بهدف إبعاد العرب تدريجيا من المناطق التي تدخل تحت السيطرة الفرنسية إذ دعا أنفانتان إلى تحويل مؤسسة الملكية في الجزائر إلى مؤسسة شبيهة بتلك الموجودة في فرنسا، معتبرا أنّ الملكية عند المسلمين في الجزائر هي ملكية جماعية وبالتالي فإنّ العرب ليسوا في حاجة إلى الأرض إلا بالقدر الذي يسمح لهم برعي مواشيهم، ومن ثمّ يمكن للفرنسيين استغلال هذه الأراضي واستثمارها لانجاز المشاريع الصناعية والرأسمالية كان أنفانتان يحاول تبرير الاستعمار الأبدي للجزائر وعدم تراجع فرنسا عن مهمتها التنويرية لإكساب هذه التجربة شرعية أمام الرأي العام في الداخل والخارج، وذلك بهدف اتخاذ الجزائر كمخبر للتجارب على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

كان أنفانتان يسعى إلى تبرير الاستعمار كعملية أبدية، مؤكدا على أن فرنسا يجب أن تظلّ ملتزمة بمهمتها التنويرية. وقد اعتبر الجزائر مختبرا لتجارب اقتصادية واجتماعية وسياسية، قائلا: "إذا أعلنت الحكومة منذ البداية أنّ الجزائر فرنسية، فلا يجب أن تتخلّى عن ذلك... ونحن قادرون على إقناع مواطنينا والدول الغربية بجدوى وجودنا هنا، مما سيعزز الشرعية لاستعمار الجزائر للأبد"[63]. وأكدّ أنّ الاستعمار سيساهم في تقدم الإنسانية، ويتيح فرصة لفرنسا لتطبيق تجارب اجتماعية جديدة في شمال إفريقيا.

وضع أنفانتان في كتابه استعمار الجزائر، مجموعة من الضمانات لتشجيع المستوطنين على الانتقال إلى الجزائر، حيث منح كل مستوطن حقّ الحصول على جراية مالية وسكن مجاني ومنحة تقاعد، بالإضافة إلى امتيازات أخرى[64]. وقد تصوّر أنفانتان أنّ القرية المثالية ستتكون من 192 عائلة، أي ما يعادل 1000 إلى 1200 شخص، مع إدارة كل مستعمرة تحت إشراف قائد عسكري، يدعمه ضباط وضباط صفّ، بالإضافة إلى مهندس مسؤول عن إدارة المشاريع[65].

أشار أنفانتان إلى أنّ الملكية في المستوطنات المدنية ستكون جماعية من الناحية الجوهرية، بينما تكون شكلية من حيث المظاهر. وأوكل مهمة تغيير المجتمع ووسائل الإنتاج وعقلية السكان الأصليين للحكومة الفرنسية، مشيرا إلى أهمية هذه الإجراءات في دعم الاستعمار وتحقيق أهدافه. يقول أنفانتان في كتابه استعمار الجزائر: "...ستكون الملكية داخل المستعمرات المدنية جماعية في العمق وشخصية شكليا وستوكل للحكومة الفرنسية مهمة تغيير المجتمع ووسائل الإنتاج وعقلية السكان الأصليين..."[66].

وقد دعّمت كتابات أنفانتان ومقالات الشقّ السان سيموني المنخرط في تبرير الاستعمار عبر الدعوة إلى استخدام الجيوش في بناء المستوطنات وفي استصلاح الأراضي وهذا ما تمّ في عهد الجنرال توماس روبار بيقو [67]. كما شهد الاستيطان تطوّرا كبيرا، بمجيء الجنرال بيقو الذي صرّح في يوم 14 ماي 1840 أمام النواب: "...يجب أن يقيم المستوطنون في كل مكان توجد فيه المياه والأراضي الخصبة، دون الاستفسار عن أصحابها..."[68]. ومن ثمّ أخذ بيقو يشجّع العسكريين الذين أنهوا خدمتهم على الاستقرار في الجزائر، كما عمل على إنشاء المستوطنات كي يعملوا فيها بصفة جماعية، كما أنشا المزارع حول المعسكرات ليستغلها الجنود. وقد اشتدّت الهجرة الأوربية نحو الجزائر في عهده، ففي سنة 1843 وحدها وصل إلى الموانئ الجزائرية 14 ألف و137 مهاجرا، منهم أكثر من 12.006 من الفرنسيين والباقي من الألمان والأيرلنديين والسويسريين. وبلغ عدد المستوطنات 28 مستوطنة، سنة 1844، في المتيجة والساحل، وفي سنة 1845 وصل إلى الجزائر حوالي 46 ألف مهاجرا أوروبيا. وقد بلغ عدد الأوروبيين المدنيين في الجزائر 215 ألفاً، مما جعل الغزو يتحوّل إلى استعمار مدني واقتصادي بعد الغزو العسكري. وبحلول سنة 1860، أصبح عدد الأوروبيين في الجزائر 155 ألفا، منهم 215 ألف فرنسي، وقد تمكنوا جميعا من امتلاك أفضل الأراضي الزراعية[69].

عملت السلطات الفرنسية على توفير جميع الظروف اللازمة لدعم حركة الاستيطان، وهو ما يتجلّى بوضوح في خطابات الحكام العسكريين والمدنيين الذين تولوا إدارة الجزائر. كان تشجيع الأوروبيين على الاستيطان أمرا حيويا للسلطة المحتلة، التي قدّمت لهم كافة الشروط الضرورية للاستقرار على حساب السكان الأصليين. من بين هذه الشروط، تم توفير السكن وضمان رواتب أعلى من تلك المقرّرة في فرنسا[70]. بالإضافة إلى تشييد المدارس وتعبيد الطرقات ومدّ شبكات السكك الحديدية وتهيئة الجسور.

خلال فترة الجنرال بيقو (1842-1848)، ارتفع عدد المهاجرين الأوروبيين بشكل ملحوظ بلغ حوالي 100,000 شخص، حيث سجل زيادة كبيرة بنسبة(42%) مقارنة بسنة 1839، وكانت الغالبية العظمى منهم فرنسيين (43.5%)، تلاهم الإسبان (28 %) والإيطاليون (8%)، مما يدلّ على تنوّع الهجرات[71] . كما ساهم إنشاء القرى الجديدة (42 قرية جديدة ما بين 1848 و1850) وتأسيس الشركات، مثل الشركة الجزائرية التي تأسّست سنة 1868 والتي حصلت على 100,000 هكتار من الأراضي، في تسهيل الاستيلاء على الأراضي الخصبة، حيث تم تقديم الأراضي بشروط مغرية مثل دفع مبلغ رمزي مقابل كل هكتار(فرنك واحد لكل هكتار لمدة 50 سنة). مما أدّى إلى إصدار سلسلة من القوانين التي مكنّت المعمرين من الاستيلاء على الأراضي الخصبة بطرق مختلفة. [72]. هذه السياسات لم تعزّز الاستيطان فحسب، بل أدّت أيضا إلى تغييرات كبيرة في التركيبة السكانية والاقتصادية للبلاد، متجاهلة حقوق السكان الأصليين.

وجد السان سيمونيون، كمؤيدين للرأسمالية، في الجزائر بلدا غنيا بمقدراته وثرواته الطبيعية القابلة للاستثمار. لذلك فقد اعتبروا أنّ قدوم عدد أكبر من المعمرين الفرنسيين سيعزّز المشاريع التصنيعية ويزيد من الإنتاجية الاقتصادية. مع تحوّل أفكارهم من السعي لتحقيق الوحدة الإنسانية إلى تبرير الاستعمار، أصبح الاستعمار يُنظر إليه كوسيلة لنشر الحضارة في الشرق.

كان أنفانتان من أبرز الداعين لهذا التوجه، حيث اعتبر أنّ الفرنسيين هم "حاملو مشعل الحداثة" ويجب عليهم نقل المدنية إلى بقية شعوب العالم. وأكدّ أنّ على فرنسا مسؤولية تحقيق السلام العالمي ونشر التنوير، مُعبّرا عن فكرة أنّ الفرنسيين هم "يونانيو العالم"، أي حاملون للفكر والحضارة، ولديهم واجب نشر هذه القيم في المجتمعات الأخرى. يقول أنفانتان: "...إنّ الفرنسيين على رأس الحضارة الأوروبية حاملين مشعل الحداثة ولا بدّ لهم من حمل المدنية إلى بقية شعوب العالم.....تقع على فرنسا المبادرة بتحقيق السلام العالمي...نحن يونانيو العالم وتقع علينا مهمة نشر التنوير في العالم..."[73].

حاول أنفانتان دعم الاستعمار الرأسمالي الفرنسي عبر تنفيذ مشاريع كبرى تهدف إلى مضاعفة الأرباح. ورغم ذلك، انتقد في كتابه استعمار الجزائر التكاليف المادية الباهظة للاحتلال، مشيرا إلى النقاشات المستمرة حول جدوى هذا الاستعمار. قائلا في أوّل الكتاب: "...منذ سنوات ونحن نتناقش حول الجدوى من احتلال الجزائر على أعمدة الصحف وداخل مختلف الأحزاب وفي المراسلات الدبلوماسية ولكن لا بدّ من التأكيد أنّ تجربة استعمار الجزائر كلّفت الأمة مبالغ طائلة وأسالت دماء عدد كبير من أبنائها ولكنني أعتقد أنّ الأهم هو أن نبحث في السبل الكفيلة بجعل هذه الحملة مربحة ومنتجة وبأقلّ التكاليف المادية والبشرية..."[74]. واقترح أن تُوكل الأراضي الزراعية للسلطات الاستعمارية، وتحويل الأهالي إلى عمال يتقاضون جزءا من العائدات من خلال استثمارات رأسمالية. ومع ذلك، كانت حصة الأهالي في الإنتاج ضئيلة، مما يعكس طبيعة نمط الإنتاج الذي ظلّ نظاما فيوداليا استغلاليا.

الخاتمة

لا يمكن إنكار حقيقة تورط السان سيمونيين في المشروع الاستعماري كما لا يمكن إنكار تواطؤ الأب بروسبير أنفانتان الذي حاول أن يبرّر استعمار الجزائر بنظرية عنصرية

تقرّ بعدم تساوي الأعراق جاعلا من واجب البلدان الأكثر حضارة قيادة الأمم الأقلّ تنوّرا نحو التمدّن والحضارة. وفي الواقع لم تكن هذه التوجهات الجديدة لتتوافق مع أفكار المذهب السان سيموني، الذي طالما دعا إلى توحيد شعوب العالم وإحلال السلام لاستثمار مقدرات الكون وتحقيق العدالة الاجتماعية والوحدة الكونية، فقد عبّرت هذه التوجهات عن تطوّر التيار الليبرالي داخل المدرسة السان سيمونية وانخراطه في تبرير السياسة الاستعمارية وإضفاء شرعية عليها وقد أدّت السياسات الاستعمارية التي دعمها أنفانتان إلى زيادة مشاعر المقاومة الوطنية بين الجزائريين. فمع تزايد الاستياء من الإجراءات الاستعمارية، بدأ الشعب الجزائري في تنظيم حركات مقاومة ضدّ الاستعمار الفرنسي.

رغم الدعم الذي قدّمه الشقّ الليبرالي من السان سيمونيين للاستعمار، فقد حافظ شقّ اليسار على الطابع الاشتراكي الإنساني الذي وسم المدرسة في بداياتها، حيث دعا إلى مشاريع الوحدة العالمية وإحلال السلام والمساواة بين الأعراق[75]. كان إسماعيل إيربان (1812-1884) من أبرز هؤلاء، حيث تمسّك بفكرة الوحدة الإنسانية وأبدى معارضته لمشاريع الاستعمار القائم على الاستحواذ على الأراضي الجزائرية[76]. فقد انتقد إيربان أفكار ميشال شوفالييه التي كانت تخلط بين تجارب الاستعمار في أمريكا وأفريقيا، مشيرا إلى أنّ العرب في الجزائر لن يتخلّوا عن أراضيهم كما فعل الهنود في أمريكا[77]. وأكدّ أنّ المناخ والموارد في الجزائر لا تسمح بتوطين عدد كبير من الأوروبيين، مما يتطلّب التركيز على الاستثمارات الصناعية بدلا من إرساء دعائم الاستعمار الزراعي[78]. وقد نجح إيربان في إقناع الإمبراطور نابليون الثالث أنّ الجزائر لا يجب أن تسلّم للمستوطنين، وأنّ من واجب فرنسا الأول هو الاهتمام بسعادة ثلاثة ملايين عربي. كان هذا بمثابة بداية تغيير جذري في السياسة، حيث صدر في 26 نوفمبر 1860 مرسوم يلغي وزارة الجزائر، على مضض من المستوطنين[79].

ولكنّ هذه الأفكار ظلّت بعيدة عن التحقيق، في ظلّ هيمنة السياسة الاستعمارية القائمة على الاستيطان والتنظير لفكرة الجزائر فرنسية. فقد دافع بروسبير أنفانتان عن هذا المشروع بعد أن تخلّى عن المقولات الاشتراكية للمدرسة السان سيمونية، وشرع في إدارة المشاريع الرأسمالية التي تبرّر الاستعمار. لذلك يمكنّنا الإقرار أنّ نجاح هذا التيّار في فرض سياسة استعمارية قد ساهم في تكوين صورة سلبية وخطيرة عن المدرسة السان سيمونية.

الهوامش:

[1] بروسبير أنفانتان (1796-1864) هو شخصية مهمة في الفكر الاجتماعي والسياسي الفرنسي خلال القرن التاسع عشر. وُلد في عائلة أرستقراطية، مما أتاح له فرصة التعليم في معهد نابليون، حيث درس الرياضيات تحت إشراف أوليند رودريغيز، الذي كان له دور بارز في توجيه اهتماماته الفكرية. في سنة 1824، شارك أنفانتان في قراءة كتاب "المسيحية الجديدة" لسان سيمون، الذي ترك أثراً عميقاً عليه. إذ وجد في أفكار سان سيمون إطاراً لتحقيق تنظيم اجتماعي أفضل، مما دفعه لاستكشاف موضوعات الإصلاح الاجتماعي. بعد التحاقه بالمدرسة الهندسية في باريس، انقطع عن دراسته للانخراط في الجيش، حيث اكتسب شهرة في الأوساط الطلابية بفضل نشاطه في المظاهرات المناهضة للهيمنة العثمانية على اليونان. بعد انتهاء الحرب، ترك أنفانتان الجيش وكرّس جهوده للقضايا الاقتصادية والسياسية، وأصبح من قادة الحركة السان سيمونية بعد وفاة سان سيمون. دعا إلى السلام العالمي من خلال مشاريع إنسانية، مؤمناً بأهمية التنظيم الاجتماعي لتحقيق العدالة. لا تزال أفكاره تُدرس حتى اليوم في سياق الفلسفة الاجتماعية، وقد تركت تأثيراً ملحوظاً على الحركات الاجتماعية والسياسية اللاحقة.

[2] Philippe Régnier, Les saints simoniens en Égypte, (1833-1851), Le Caire, Amin Abdelnour, 1989, pp.59-60.

[3] Mustapha Lacheraf, L’Algérie nation et société, Paris, Maspero, 1965, p.131.

[4] راجع: نادية الرياحي، السان سيمونية في الجزائر بين الرسالة التبشيرية والإيديولوجيا الاستعمارية، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 143، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2011، ص.ص. 333-356.

[5] Raymond Ruyer, L'Utopie et les utopistes, Paris, PUF, 1950, p. 229

[6] ميشال شوفالييه (1806-1879) كان اقتصاديا وسياسيا بارزا، يُعتبر أحد أهم زعماء المدرسة السان سيمونية. أسهمت أفكاره في تطوير الفكر الاجتماعي والاقتصادي في القرن التاسع عشر.

[7] Sébastien Charlety, Histoire du saint-simonisme (1825-1864), Paris, Editions Gonthier, 1931, p.253.

[8] Ibid, p. 252.

[9] راجع: نادية الرياحي، جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية، تونس، مركز النشر الجامعي، 2015.

[10] Sébastien Charlety, Op.cit, p.219.

[11] Henri René D'Allemagne, Les saints- simoniens, 1827-1837, Grund, Paris, 1930, p.119

[12] Ibid, p. 121.

[13] Le Globe, Journal philosophique et littéraire, puis Journal de la doctrine de Saint-Simon, puis Journal de la religion Saint- simonienne, Paris, au bureau du Globe, 15 décembre 1831-20 avril 1832, 16 janvier 1832.

[14] Le Globe, 5 février 1832.

[15] Le Globe, le 16 janvier 1832.

[16] نادية الرياحي، جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية، مرجع سابق، ص. 284.

[17] Yver Georges, Enfantin et l'émigration étrangère en Algérie, in Revue Africaine, Volume 59, 1918, p. 258.

[18] راجع: نادية الرياحي، جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية، مرجع سابق.

[19] Jacques Frémeaux, La France et l'Algérie en guerre (1830-1870), Paris, Economica, 2002, p.42.

[20] Ibid, p.17.3

[21] Citée dans Benjamin Stora, Histoire de l'Algérie coloniale : 1830-1954, Paris, la Découverte, 2006, pp.121-122.

[22] Ibid, p. 66.

[23] Michel Reuillard, Les Saint-simoniens et la tentation coloniale, Paris, L'Harmattan, 2002, p. 52.

[24] Sebastian Charlety, Op.cit, p. 252.

[25] Daniel Guiliod, Les figures de l'organisation, sciences de la vie et sciences sociales au 19éme siècle, Paris, PUF, 2003, p.175.

[26] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر، دار البصائر، 2009، الجزء السادس، ص. 438.

[27] Lettre de Lamoricière à West, 10 janvier 1832, Arsenal 7609, fasc. 49, citée dans Henry René D'Allemagne, Op.cit. p.479.

[28] Michel Reuillard, Op.cit., p. 108.

[29] Marcel Emerit, Op.cit., p. 155.

[30] Ibid, p.25.

[31] Ibid, p. 162.

[32] Michel Reuillard, Op.cit., pp.112-1113.

[33] Prosper Enfantin, Colonisation de l'Algérie, Paris, Librairie Pierre Bertrand, 1843, p.370.

[34] مصطفى عبيد، الفكر الاستعماري السان سيموني في مصر والجزائر، 1833-187، الجزائر ، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2013، ص. 46-47.

[35] أحميدة عميراوي، السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في منطقة سكيكدة 1838-1858، الجزائر، دار الهدى ، عين مليلة، 2004 ، ص. 62.

[36] Cordier E.-H. Napoléon III et l'Algérie, ancienne imprimerie, V. Heintz, Alger, 1937, p. 215

[37] أحميدة عميراوي، السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في منطقة سكيكدة 1838-1858، مرجع سابق،ص. 65.

[38] تضمّنت اللجنة العلمية الاستكشافية 21 عضوا، من بينهم 10 عسكريين و11 مدنيا، 0قبل انطلاق البعثة في 20 نوفمبر، وقد توسعت اللجنة لتصبح 24 عضوا، حيث عيّن رينو (Renou) ورافوازيي (Ravoisier) كعضوين دائميين. كما تمّ تعيين النقيب دولامار (Delamare) كملحق للبحث في مجال الآثار، وغيشنوت (Guichenote) في اختصاص التاريخ الطبيعي، وبيريي (Perrier)كطبيب جراح .عُيّن أيضا إيربان (Urbain) وشيسباو (Schousboe) كمترجمين، واختارت أكاديمية الآداب والفنون ليون فودوايي (Voudoyer) في مجال الهندسة المعمارية، وبيربروجر (Berbrugger)محافظ مكتبة الجزائر في مجال الآثار. كما عُيّن بول بريار (Prieur) كمنسق مالي عسكري لإقليم وهران. وقد أدرجت وزارة الحربية كذلك ضابطي المدفعية بريناك (Brunel) وبويون بوب لاي (Bob Laye) والنقيب كازيمير كاي (Kay) ، وهو لاجئ بولوني يتقن العربية. بالإضافة

إلى ذلك، كان المستشرق أونوري دي لابورت (De Laporte) يساهم بأبحاث حول قرطاجة، والرائد ميشال كاريت (Carette) مكلفاً بدراسة أصول اللغة والإثنيات داخل الجزائر. كما كُلّف بروسبيير أونفونتان بالأثنوغرافيا والتاريخ والتقاليد الجزائرية.

وحدّد تاريخ 20 نوفمبر 1839 موعدا لانطلاق الرحلة من ميناء طولون، بحيث تشمل جميع أفراد الطاقم، بما في ذلك الأشخاص الموجودين في الجزائر أثناء الخدمة. وكان رئيس اللجنة العقيد بوري دي سان فانسان (De Sainte Vincent) ، باحث مختص في علم النبات والحيوان، والذي ترأس سابقاً اللجنة العلمية في موريا باليونان، قد حمل رسالة من وزير الحربية إلى الماريشال فاليي، يطلب فيها تأمين البعثة ودعم طاقمها.

[39] Jean Pierre Alem, Enfantin : le prophète aux sept visages, Paris, Jean Jacques Pauvert, 1963, p.126.

[40] Benjamin Stora, Op.cit, p. 221.

[41] Ibid, p. 223.

[42] René Galissot, La république française et les indigènes : Algérie colonisée, Algérie algérienne 1870-1962, Paris, Editions de l'Atelier, 2007, p. 48.

[43] Ibid, p.50.

[44] Ibid, p. 161.

[45] Ibid, p. 162

[46] JACQUES FREMEAUX, **LES BUREAUX ARABES DANS L'ALGERIE DE LA CONQUETE**, PARIS, DENOËL, «L'AVENTURE COLONIALE DE LA FRANCE », 1993.

[47] راجع: مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1986.

[48] مصطفى عبيد ، الفكر الاستعماري السان سيموني في مصر والجزائر، مرجع سابق، ص. 43.

[49] René Galissot, Op.cit., p.128.

[50] احميدة عميراوي، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص. 123.

[51] Prosper Enfantin, Op.cit., p.116-117.

[52] احميدة عمراوي، السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص. 65

[53] Michel Reuillard, Op.cit., p.100.

[54] Prosper Enfantin, Op.cit, p. 12.

[55] Marcel Emerit, Op.cit, p. 122.

[56] Prosper Enfantin, Op.cit., p. 43.
[57] Ibid., p. 75.
[58] Ibid., p. 109-110.
[59] Ibid, p.116-117.
[60] Ibid, p.133.
[61] Ibid, p.199-206.
[62] Ibid, p370.
[63] Ibid, p.107.
[64] Marcel Emerit, Op.cit, p.109.
[65] Ibid, p. 115.
[66] Prosper Enfantin, Op.cit., p. 160.
[67] Benjamin Stora, Op.cit. p. 221.
[68] Citée dans Benjamin Stora, Op.cit., p.171.

[69] عبد الله شريط ومحمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ط 2، مكتبة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965 ، ص. 127.

[70] Ibid, p.79.
[71] Ibid, p. 81.
[72] Jacques Frémeaux, La France et l'Algérie en guerre (1830-1870), Op.cit., p.128.
[73] Prosper Enfantin, Op.cit, p. 16.
[74] Ibid, pp. 8-9.
[75] Ismail Urbain, L'Algérie pour les algériens (1861), réédition par Michel Levallois, Paris, Séguier Atlantica, 2002.
[76] Michel Levallois, Ismayl Urbain (1812-1884), une autre conquête de l'Algérie, Paris, Maisonneuve, 2001, p. 24.

[77] نادية الرياحي، توماس إسماعيل إيربان من السان سيمونية إلى الاسلام، نحو بلورة نظرية في الفكر السياسي الاقتصادي بالجزائر 1837-1870، ضمن كتاب الشأن الديني والشأن السياسي في المجتمعات الإسلامية، تونس، الدار التونسية للكتاب،2023.

[78] Lettre d'Ismail Urbain à Lacroix, le 4 mars 1862, Arsenal 7612, fasc. 78, citée dans Marcel Emerit, Op.cit, p. 389.

[79] شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ط1 ، منشورات عويدات، بيروت، 1982، ص. 57.

نظام الأرباع بخراسان من الفتح الإسلامي إلى القرن الثالث للهجرة

The Quarter System in Khorasan from the Islamic Conquest to the Third Century of Hijra

وليد بودانة*

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)

Walid.boudana@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/12/22	2025/01/20	2025/01/31

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تتبع التطور الذي طرأ على التقسيمات الإدارية لإقليم خراسان خلال المرحلة المبكرة من الفتح الإسلامي وحتى القرن الثالث الهجري ويركز بشكل خاص على نظام الأرباع الذي ورثته خراسان عن الفترة الساسانية واستمر تطبيقه خلال الفترة الأولى بعد الفتح الإسلامي.

سيتناول البحث تحليل النصوص الجغرافية والتاريخية العربية التي تطرقت لهذا التقسيم الإداري، مع التركيز على تحديد المدن الرئيسية لكل ربع وتحديد طبيعة التغيرات التي طرأت على هذا النظام خلال الفترة الزمنية المحددة. كما سيسعى البحث إلى مقارنة الروايات المختلفة حول التقسيم الإداري لخراسان بين الجغرافيين العرب، وتوضيح أسباب الاختلافات بينها، وذلك بهدف الوصول إلى صورة واضحة وشاملة عن التنظيم الإداري لخراسان خلال هذه الفترة.

الكلمات المفتاحية: خراسان؛ التقسيمات الإدارية؛ الأرباع.

Abstract:

This research aims to trace the development of the administrative divisions of Khorasan during the early stage of the Islamic conquest until the third century AH, and focuses in particular on the quarter system that Khorasan

* المؤلف المرسل

inherited from the Sassanid period and continued to be applied during the first period after the Islamic conquest. The research will analyze the Arabic geographical and historical texts that addressed this administrative division, with a focus on identifying the main cities of each quarter and determining the nature of the changes that occurred in this system during the specified time. The research will also seek to compare the different narratives about the administrative division of Khorasan among Arab geographers, and clarify the reasons for the differences between them, with the aim of reaching a clear and comprehensive picture of the administrative organization of Khorasan during this period.

Key words: Khorasan, the administrative divisions, The Quarter System.

مقدمة:

حظي إقليم خراسان بأهمية استراتيجية بالغة لدى الأباطرة الساسانيين، حيث أولوا إدارته عناية فائقة بهدف بسط نفوذهم المحكم عليه. وقد تجلّى ذلك في حرصهم على تعيين الولاة عليه من أفراد أسرتهم لا سيما من بين أبنائهم الذين كانوا يُرشحون لولاية العهد، وذلك بهدف تهيئتهم وتدريبهم على شؤون الحكم وإدارة الدولة.

عقب الفتح الإسلامي، حافظ إقليم خراسان على مكانته السياسية المتميزة، بل اكتسب بُعدًا جديدًا بوصفه منطلقًا للفتوحات الإسلامية في مناطق وسط آسيا. وشهد الإقليم بزوغ الدعوة العباسية التي انطلقت منه واشتد عودها فيه، مُساهمةً في تغيير مجرى التاريخ الإسلامي. كما كان مسرحًا للعديد من الحركات والثورات التي اندلعت ضد الخلافة الأموية ثم العباسية، ما يعكس أهميته السياسية وقوة تأثيره على مركز الخلافة وسلطتها.

وفي ضوء هذا السياق السياسي، وارتباط الشؤون السياسية بالتسيير الإداري، فإن هذه الورقة تسعى إلى دراسة النظام الإداري المتبع في إقليم خراسان خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى، مستعرضةً نصوص الجغرافيين العرب حول التقسيمات الإدارية للإقليم وتطورها.

01-إقليم خراسان (التسمية والحدود):

1.1 التسمية:

تعددت الروايات حول مدلول كلمة خراسان واشتقاقها اللغوي، وقد طغى الجانب الأسطوري على بعض منها إذ ينقل ابن الفقيه (ت365هـ/ 975م) عن دغفل النسابة[1] (ت60هـ/679م) قوله: "خرج خراسان وهيطل ابنا عالم بن سام بن نوح، عليهما السلام، لما تبلبلت الألسن[2] ببابل فنزل كل واحد منهما في البلد المنسوب إليه..."[3] أي أن إقليمي خراسان وهيطل -ما وراء النهر-نُسبا إلى شخصين أقاما بهما وفق هذه الرواية.

وجاء في رواية أخرى أن خراسان مركبة من كلمتين "خر" وتعني كُل و"آسان" التي تعني سهل، ليصبح المعنى كل سهلا أو كل بلا تعب،[4] وفسرها أبو الفداء (ت732هـ/ 1331م) بأنها كُل بالرفاهية.[5]

وهناك ترجمة أخرى للمقطعين السابقين جاء فيها أن "خُر" تعني الشمس و"آسان" يُقصد بها أصل الشيء ومكانه وبذلك يصير معناها مطلع الشمس،[6] أو البلاد الشرقية كما ترجمها المستشرق البريطاني كي لسترنج.[7] ويبدوا أن هذا التفسير هو الأقرب إلى الصحة من بين الروايات المذكورة، ذلك أن عدداً من أسماء المدن بإيران[8] كانت تحمل دلالات على واقعها الجغرافي والاقتصادي.[9]

1-2 حدود الإقليم:

لعل من أهم الصعوبات التي تواجه الباحث في جغرافية المشرق الإسلامي مشكلة تعيين الحدود بين أقاليمه، وذلك بسبب تداخلها وارتباطها بالتنظيمات الإدارية والأوضاع السياسية، إذ تتوسع وتتقلص حدود كل إقليم تبعا للتغييرات الإدارية ولتعاقب الدويلات المستقلة وتوسعاتها على حساب بعضها.

كان إقليم خراسان في العصور الإسلامية الأولى يضم كل بلاد ما وراء النهر حتى أن ابن الفقيه (ت365هـ/ 975م) عبّر عن ذلك بتسميته لما وراء النهر ب "خراسان العليا" وما دونه "خراسان السفلى"،[10] ويذكر الحموي (ت626هـ/1228م) أن سبب ذلك كون بلاد ما وراء النهر كانت مضمومة إداريا لوالي خراسان.[11]

غير أن حدود خراسان صارت أكثر وضوحا فيما بعد إذ أصبح نهر جيحون (أموداريا Amu-darya) يمثل الحدود الشمالية للإقليم،[12] وتحده خوارزم من جهة الشمال الغربي، أما من الجنوب فتحده سجستان وقوهستان،[13] ومن جهة الشرق بلاد الهند[14] حيث تفصل جبال الهندكوش بينهما،[15] ومن الغرب جرجان والمفازة الكبرى.[16]

02-نظام الأرباع:

يذكر ابن خرداذبه (ت حوالي 300هـ/ 913م) أن خراسان في العصر الساساني كانت مقسمة إداريا إلى أربعة أقسام يحكم كل قسم منها مرزبان، وهؤلاء المرازبة تحت سلطة أصبهذهان باذوسبان وهذه الأقسام الأربعة هي:

- ربع مرو الشاهجان وأعمالها.
- ربع بلخ وطخارستان.
- ربع هراة وبوشنج وباذغيس وسجستان.
- ربع ما وراء النهر.[17]

لكن هذا التقسيم يثير لدينا بعض الاستفهامات، ذلك أن الإمبراطورية الفارسية في العهد الساساني لم تتعد حدودها نهر جيحون في أحسن الأحوال،[18] ولم يحدث البتة أن فرض الساسانيون حكمهم على بلاد ما وراء النهر.[19]

كما أن ابن خرداذبه لم يذكر ربع نيسابور التي كانت مقرا لإدارة الإقليم زمن الساسانيين، والظاهر أنه استعاض عنها ببلاد ما وراء النهر، إضافة إلى تقديمه لمرو الشاهجان وجعلها هي

الربع الأول وذلك لكونها قصبة الإقليم من الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الطاهرية رغم أن حديثه عن هذا التقسيم في الفترة الساسانية كما أسلفنا، وهو ما يجعلنا نفترض أنه قد خلط بين التقسيم الإداري لخراسان في الفترة الساسانية وتقسيمها في الفترة التي عاصرها.

يبدوا أن العرب قد واصلوا الاعتماد على نظام الأرباع بخراسان مع بداية استقرار الفتح الإسلامي بالإقليم، حيث يذكر خليفة بن خياط (ت 240هـ/ 855م) في أحداث سنة 31هـ/ 651م أن الوالي عبد الله بن عامر (ت 59هـ/ 678م) أحرم من خراسان واستخلف عليها "قيس بن الهيثم السلمي ونافع بن خالد الطاحي وخليد بن عبد الله الحنفي وحاتم بن النعمان الباهلي". وورد عند اليعقوبي (ت 284هـ/ 897م) أن عبد الله بن عامر حين فتح خراسان صيّرها أرباعا فولى "قيس بن الهيثم السلمي على ربع، وراشد بن عمرو الجديد على ربع، وعمران بن الفصيل البرجمي على ربع، وعمرو بن مالك الخزاعي على ربع".[20]

وينقل الطبري (ت310هـ/ 923م) عن سيف بن عمر (ت180هـ/ 796م) أن عبد الله بن عامر عندما أتم فتح خراسان فرقها بين "نفر ستة: الأحنف بن قيس على المروين، وحبيب بن قره اليربوعي على بلخ... وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة، وأمير بن أحمر اليشكري على طوس، وقيس بن الهيثم السلمي على نيسابور... وعبد الله بن خازم."[21]

وضع سيف بن عمر هذا الحدث في السنة الثالثة من خلافة عثمان بن عفان (ت 35هـ/ 656م)، وقد أخطأ في ذلك فالمعلوم أن خراسان فتحت بعد أكثر من ست سنوات من خلافته، كما أن هذا النص تنقصه المناطق التي أوكلت ولايتها إلى عبد الله بن خازم،[22] إضافة إلى فصله طوس عن نيسابور وهو ما لا تؤيده باقي المصادر.

كل هذا جعل الأستاذ صالح العلي يفترض بأن هذا الفصل من أخطاء سيف بن عمر وأن اسم عبد الله بن خازم مقحم خطأً في النص وبالتالي تصبح خراسان مقسمة إلى أربعة أقسام: 1-المروين 2-بلخ 3-هراة 4-طوس ونيسابور،[23] وهو الأمر الذي يتفق مع نصي

ابن خياط واليعقوبي القائلين بأن عبد الله بن عامر قد صيّر خراسان أرباعا مع ملاحظة أن النصوص الثلاثة تختلف في أسماء من وُلي إدارة هذه الأرباع.

وفي العهد الأموي يذكر البلاذري (ت279هـ/892م) أن معاوية بن أبي سفيان (ت64هـ/ 683م) ولى سنة 45هـ/665م زياد بن أبي سفيان (ت53هـ/ 672م) على البصرة وضم إليه خراسان فولى هذا الأخير عليها:

- أمير بن أحمر: مرو.
- خُليد بن عبد الله الحنفي: أبرشهر.
- قيس بن الهيثم: مرو الروذ، الطالقان، الفارياب.
- نافع بن خالد الطاحي: هراة، باذغيس، بوشنج، قادس.[24]

يلاحظ على هذا النص أنه أغفل بلخ، كما أنه لم يجعل ما وراء النهر من أرباع خراسان ولعل ذلك يعود إلى أن العرب في هذه الفترة لم يسيطروا عليها بعد.[25]

نقل ابن الفقيه والحموي نصا منسوبا إلى البلاذري جاء فيه أن خراسان أربعة أرباع هي:

الربع الأول: ايرانشهر (وهي نيسابور)، قوهستان، الطبسين، هراة، بوشنج، باذغيس، طوس.

الربع الثاني: مرو الشاهجان، سرخس، نسا، أبيورد، مرو الروذ، الطالقان، خوارزم، زم، آمل.

الربع الثالث: الفارياب، الجوزجان، طخارستان العليا، خست، أندرابه، الباميان، بغلان، والج، رستاق بنك، بذخشان، الترمذ، الصغانيان، طخارستان السفلى، خلم، سمنجان.

الربع الرابع ما وراء النهر: بخارى، الشاش، الطاربند، الصغد، الروبستان، أشروسنة، سنام، قلعة المقنع، فرغانة، سمرقند.[26]

وقد ورد هذا النص أيضا عند المقدسي (ت حوالي 380هـ/ 990م) لكن بشكل مختصر حيث اكتفى بذكر أهم المدن فقط.[27]

يذكر الأستاذ العلي أنه لم يجد نص البلاذري الوارد أعلاه في طبعة دي غويه لكتاب "فتوح البلدان" والتي هي أساس كل الطبعات اللاحقة، كما أنه لم يجده في المخطوط والمطبوع من كتاب أنساب الأشراف، غير أن وروده عند جغرافيين ثقات يؤكد صحته، الأمر الذي يقدم دليلا على أن الطبعة الحالية لفتوح البلدان بها نقص وتحتاج إلى إصلاح،[28] وما يدعم هذا الرأي وجود نص آخر منقول عن البلاذري عند ابن الفقيه عن كور طبرستان غير أننا لا نجده في كتب البلاذري.[29]

يمكن القول بأن نص البلاذري وصف أحوال خراسان في القرنين الأول والثاني للهجرة، لكن هذه التقسيمات تغيرت مع مطلع القرن الثالث واستقرار أوضاع خراسان، لذلك علق الحموي على هذا النص قائلا: "وإنما ذكر البلاذري هذا لأن جميع ما ذكره من البلاد كان مضموما إلى خراسان، وكان اسم خراسان يحملها."[30] وعلق عليه المقدسي بقوله: "وهذا يخالف مذهبنا"،[31] فالبلدانيون العرب في القرن الثالث الهجري لم يشيروا إلى الأرباع كنظام إداري قائم، ذلك أن نظام الكور قد حل محله ابتداءً من زمن الدولة الطاهرية.

خاتمة:

في الختام يمكن القول أنه بالرغم من أن فتح إقليم خراسان كان عنوة وهو ما يتيح للفاتحين العرب فرض رسومهم ونظمهم السياسية والإدارية إلا أنهم حافظوا على النظم الإدارية السائدة فيه حفاظا على استقرار الإقليم ولانشغالهم بتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، لذا أبقوا نظام الأرباع الذي كان سائدا تقسيمات خراسان الإدارية.

بالعودة لنصوص المؤرخين والجغرافيين العرب عن تقسيمات خراسان الإدارية نجد أنها تختلف فيما بينها في تحديد الأرباع والمدن التي تنتمي لكل ربع، وذلك راجع للتغيرات التي كانت تحدث في هذه الأرباع ولأن كلا من هؤلاء يروي ما يجده في زمانه.

الهوامش:

---

[1] هو دغفل بن حنظلة الشيباني، من أشهر النسابة العرب، قيل أنه مات غرقا أثناء قتال الخوارج. أنظر ترجمته عند ابن الأثير عز الدين: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، تح علي محمد معوض-عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص ص200-202.

[2] تبلبلت الألسن: أي اختلطت اللغات واللهجات. أنظر الفارابي أبو إبراهيم اسحاق: **معجم ديوان الأدب**، ج3، تح أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 2003، ص202؛ أحمد مختار عبد الحميد عمر: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، مج1، عالم الكتب، القاهرة، 2008، ص238.

[3] ابن الفقيه أحمد بن محمد الهمذاني: **كتاب البلدان**، تح يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، 1996، ص601؛ الحموي ياقوت: **معجم البلدان**، مج2، دار صادر، بيروت، 1977، ص350.

[4] البكري أبو عبيد: **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، ج2، تح مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د ت، ص489؛ الحموي: المصدر السابق، مج2، ص350؛ الحميري محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص214.

[5] أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي: **تقويم البلدان**، تح رينود-ماك كوكلين ديسلان، باريس، 1830، ص441.

[6] البكري: المصدر السابق، ج2، ص ص489-490؛ الحموي: المصدر السابق، مج2، ص350؛ الحميري: المصدر السابق، ص214.

[7] لسترنج كي: **بلدان الخلافة الشرقية**، تر بشير فرنسيس- كوركيس عواد، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص423.

[8] إيران: أو إيرانشهر (بلاد إيران) اسم يجمع بلاد العراق وفارس والجبال وخراسان. أنظر الحموي: المصدر السابق، مج1، ص289.

[9] الحديثي قحطان عبد الستار: **أرباع خراسان**، دار الحكمة، البصرة، 1990، ص16.

[10] ابن الفقيه: المصدر السابق، ص332.

[11] الحموي: المصدر السابق، مج2، ص351.

[12] ذكر القزويني أن بلاد ما وراء النهر تحد خراسان من جهة الشرق. القزويني زكريا بن محمد بن محمود: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، د ت، ص398.
والأصح أنها من جهة الشمال كما ذكرنا. أنظر الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم: **المسالك والممالك**، تح محمد جابر عبد العال الحيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004، ص145؛ ابن حوقل النصيبي: **صورة الأرض**، دار ومكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص358، مجهول: **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، تح يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1999، ص114؛ البكري أبو عبيد: **المسالك والممالك**، ج1، تح أدريان فان ليوفن-أندري فيري، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1992، ص441؛ الحميري: المصدر السابق، ص215.

[13] الحديثي: المرجع السابق، ص18. وقد أخطأ القزويني حين ذكر أن قوهستان هي الحد الغربي لخراسان. أنظر القزويني: المصدر السابق، ص398.

[14] الاصطخري: المصدر السابق، ص145؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص358، مجهول: المصدر السابق، ص114؛ البكري: **المسالك والممالك**، ج1، ص441؛ الحموي: المصدر السابق، مج2، ص350؛ الحميري: المصدر السابق، ص215.

[15] لسترنج: المرجع السابق، ص423.

[16] الاصطخري: المصدر السابق، ص145؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص358، مجهول: المصدر السابق، ص114؛ البكري: **المسالك والممالك**، ج1، ص441؛ الحموي: المصدر السابق، مج2، ص350؛ الحميري: المصدر السابق، ص215.

[17] ابن خرداذبه عبيد الله بن عبد الله: **المسالك والممالك**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص31.

[18] أرثر كريستنسن: **إيران في عهد الساسانيين**، تر يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، د ت، ص77؛ حسن بيرنيا: **تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العصر الساساني**، محمد نور الدين عبد المنعم-السباع محمد السباعي، ط2، دار الثقافة، مصر، 1992، ص263.

[19] بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش: **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، تر صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981، ص301.

[20] اليعقوبي أحمد بن واضح: **تاريخ اليعقوبي**، مج2، تح عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2010، ص ص62-63.

[21] الطبري محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، ج4، ط2، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص266.

[22] تذكر رواية أخرى أن عبد الله بن خازم قد ولي خراسان. أنظر المصدر نفسه، ج5، ص209.

[23] العلي صالح أحمد: **تقسيمات خراسان الإدارية في العهود الإسلامية الأولى**، مجلة كلية الآداب، مج2، ع14، جامعة بغداد، العراق، 1971، ص791.

[24] البلاذري: المصدر السابق، ص576؛ الطبري: المصدر السابق، ج5، ص224.

[25] العلي: المرجع السابق، ص791.

[26] ابن الفقيه: المصدر السابق، ص615؛ الحموي: معجم البلدان، مج2، ص351.

[27] المقدسي محمد بن أحمد: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحرير وتقديم شاكر العيبي، دار السويدي، أبو ظبي، 2003، ص271.

[28] العلي: المرجع السابق، ص793.

[29] ابن الفقيه: المصدر السابق، ص565.

[30] الحموي: معجم البلدان، مج2، ص351.

[31] المقدسي: المصدر السابق، ص271.